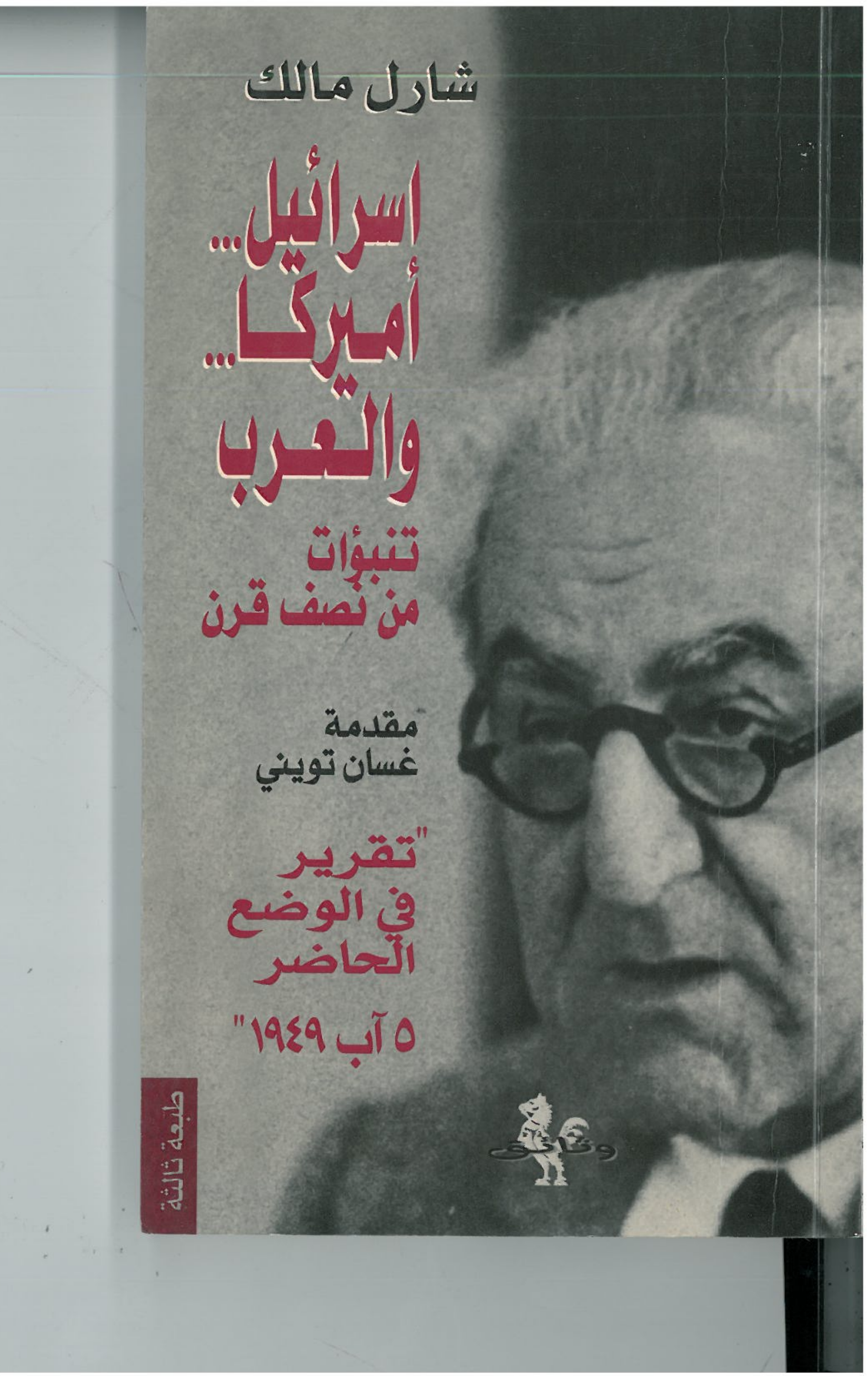


شارل مالك
اسرائيل...
أميركا...
والعرب
تنبؤات
من نصف قرن
مقدمة
غسان تويني
"تقرير
في الوضع
الحاضر
٥ آب ١٩٤٩"
طبعة ثالثة

شارل مالك

إسرائيل... أميركا... والعرب
تنبؤات من نصف قرن

• • •

تقرير في الوضع الحاضر
٥ آب ١٩٤٩

مقدّمة غسان تويني

وثائق

الطبعة الأولى، آب ٢٠٠٢
الطبعة الثانية، تشرين الأول ٢٠٠٢
الطبعة الثالثة، آذار ٢٠٠٣

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٥٦١٦٩٣-١-٩٦١

ISBN 2-84289-393-X

المحتويات

مقدّمة

بعد ما يزيد على نصف قرن من الزلازل التي هزّت وتهز العالم العربي، تنشر دار النهار وثيقة من أخطر وثائق الدبلوماسية العربية.

تاريخها: ٥ آب ١٩٤٩.

عنوانها: «تقرير في الوضع الحاضر».

صاحبها: الدكتور شارل مالك، بصفته وزير لبنان المفوض في الولايات المتحدة الأميركية، ومندوب لبنان الدائم لدى الأمم المتحدة - الحديثة العهد آنذاك - وكان الدكتور مالك أحد الذين وقعوا شرعة إنشائها في سان فرنسيسكو عام ١٩٤٥، قبيل انتهاء الحرب العالمية الثانية. وكان لبنان قد أعلن الحرب على دول «المحور» واليابان ليكتسب حق المشاركة في وضع الشرعة وتوقيعها.

هويتها: تحليل علمي، بل فكري شامل وعميق لواقع إسرائيل، ولمطامحها، بعد سنة واحدة فقط من

إنشائها. ثم تحليل للسياسة الدولية، وللسياسة الأميركية بنوع أخص، مع مقارنة بالسياسات الأوروبية، وماذا يمكن العرب أن ينتظروا من هذه وتلك.

في هذا الإطار بالذات، تحليل ولا أصرح ولا أجرأ وأعمق، لحال العرب ومستقبلهم، ومستقبل المنطقة انطلاقاً من الجذور التاريخية والمقومات الحضارية والثقافية.

والنص يصح وصفه بإعلان عن حقوق لبنان وفلسطين والعرب أجمعين ... حقوقنا على العالم كما حقوقنا على أنفسنا وواجباتنا تجاه تاريخنا المقبل على التاريخ.

من زاوية واقعنا اليوم، يبدو لنا النص أجدى بالتأمل والدرس والعناية من «إعلان حقوق الإنسان»، الذي عُرف الدكتور مالك بعظيم مساهمته في وضعه. حسبنا الملاحظة ان حقوق الانسان يتسابق اليوم أهل الإيمان بها في تجاهلها، ويتهافتون على مخالفتها وتدنيسها ... فكيف لا نبدّىء حقوقنا الذاتية عليها؟

•••

يتوج الدكتور مالك تقريره بعبارات متواضعة تقول أنه وُضع في أربع نسخ، وهو يتوخى التعبير « عن الصورة التي تظهر بها أحوال بلادنا من شرفة العاصمة الأميركية(...) الهامة في تقرير مصائر الأشياء بالنسبة

إلينا»، فيرجو «رئيس الجمهورية ورئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية أن يعيروا التقرير بعض العناية»، قائلاً أنه يكون «شاكراً جداً إذا تلقيت منكم رأيكم في الأمور التي يبحثها(...) كما أرجوكم أن لا تضنّوا عليَّ بالاستفسار عن أية مسألة قد تظهر غامضة، أو قد تبدو متناقضة مع غيرها، أو قد تكون غير مشروحة شرحاً كافياً، أو بالاستفهام عن أية قضية مهمة لم يتناولها التقرير بالبحث الواسع.»

فهل نتجنى على أحد إذا قلنا أننا لم نجد في تاريخنا الدبلوماسي ما يدل عليَّ أن أحداً قد قرأ هذا التقرير في حينه بالعناية المطلوبة؟ ... وإذا قرأه أحد، فهل فهم مداه؟ ونمضي نتساءل: إذا قُرىء التقرير وفُهم، فماذا، في سياستنا أو دبلوماسيتنا، يفيد أن حكامنا، لبنانيين وعرباً، قد اتعظوا وخططوا لمثل السياسة المتكاملة التي يدعو إليها التقرير، كي نصون كياننا كشعب بل كأمة، فكيف بصون حقوق انساننا العربي؟

•••

أما بعد، يقدّم الدكتور مالك لتقريره بجدول «القضايا الأساسية الأخيرة» التي يتناولها، وعددها ٣٥؛ ويكاد الجدول في حد ذاته يكون ملخصاً شاملاً (صفحتين أو ثلاثاً) لا للقضايا، كمجرد مواضيع بحث، بل لمترتباتها ومستنتجاتها العملية.

نستشهد من «القضايا» الـ ٣٥ ببنودٍ ثلاثة تبرر وصف

التقرير الدبلوماسي لا بالوثيقة التاريخية فحسب، بل بالتنبؤ:

«٥ . سيأتي العهد اليهودي حتماً اذا ظل العالم العربي على تأخره وتفككه الحاضرين».

«١٩ . في كل تعارض جوهري بين المصلحة الإسرائيلية والمصلحة العربية، ستؤيد أميركا المصلحة الإسرائيلية.»

«٢٢ . لا تستطيع إسرائيل الآن ان تكتسح العالم العربي وتسيطر عليه سيطرة عسكرية تامة.»

•••

هذا عن التنبؤ، ولو بالشؤم! ننقله بإيجاز، لأن قراءة متن التقرير ستكون على حد سواء مدعاة شغف واستغراب، نظراً إلى ما فيه من «الموضوعية الرؤيوية».

وكي لا تطول المقدمة، حسبنا هذه العبارات المذهلة، التي تصلح فعل إيمان بلبنان الذي كان الدكتور مالك شديد الخوف عليه بنسبة ما كان متناهي الحرص على استقلاله:

«لبنان جزء لا يتجزأ من العالم العربي (...) حان وقت بزوغ حركة تحررية صحيحة شاملة (...) لبنان وسوريا بين جميع الدول العربية مدعوان لقيادة هذه الحركة(...) استقلال لبنان ضرورة تامة (...) اذا هُدد استقلال لبنان ففرنسا تذود عنه أكثر من أميركا

وبريطانيا(...) الحذر من الارتماء في أحضان الروس سياسياً(...) مبرر لبنان الأخير أمام ذاته وأمام الضمير العالمي هو أمانته للحرية(...)»

•••

هذه عبارات جمعناها، ربما لماماً، إنما من وحي الحاضر.

وللسائل عن المزيد، هذا الاستشهاد الأخير، ولو للتوازن:

«(...) ذلك أن الصهيونيين أدركوا ما سها عن بال العالم العربي: أن التاريخ تقرره الأعمال الحاسمة لا الحجج القانونية، وان قيام دولتهم أو تلاشيها يتوقف على قوتهم لإنجاز الأمر المفعول لا على مقدرتهم على المماحكات الشرعية، وان الوسائل الإذاعية والمفاوضات السياسية كلها لا قيمة لها على الإطلاق في تقرير شكل التاريخ إلا اذا استندت إلى قوة حاسمة تنفذ إرادتها، وان التوازن السياسي والصراع الدولي هما في النهاية توازن قوى واقعية لا صراع حُجَج.»

•••

نصاب بذهول؟... نتساءل «ما العمل»؟

في «التقرير-النبوءة» ما يصح إعتباره بمثابة الرسالة: فصل كامل يسهب في شرح ما يجب أن تكونه الحركة الإصلاحية الشاملة كل حقل، وجوهرها الحرية.

ونحن - مع التقرير - لا نزال في عام ١٩٤٩ ... فلنتذكّر أننا آنذاك بالكاد كنا قد ابتلينا بـ «النكبة»، لم نتعرف بعد لا إلى «نكسة» ولا إلى ... سكرة ونشوة، ولا بالطبع الى انقلاب وثورة!!!

الآن بالذات: «ما العمل» ؟

بداية الجواب: «خلاصنا بالضغط الداخلي على العرب، لا الضغط الخارجي على أميركا . »

وفي الجانب الآخر من البحث، الكثير من التحليلات التي تراوح بين «الفلسفة الكيانيّة» المالكية، مطبقة في السياسة ... مع نكهة تذكّرنا بالنقيض: التنبؤات «النيتشوية»، لو كان المتكلم «زاراتوسترا» ... حتى لا نقول جبران خليل جبران .

غسان تويني

بيت مري، ١١/٧/٢٠٠٢

نُشر هذا التقرير، المرفوع من الوزير المفوض في واشنطن الدكتور شارل مالك الى وزارة الخارجية اللبنانية في ٥ آب ١٩٤٩، والموضوع في «أربع نسخ»، كما يشير الى ذلك مطلع النص، للمرة الأولى في مجلة «القضايا المعاصرة» (تشرين الثاني، ١٩٦٩) الصادرة في بيروت عن مجموعة صحيفة «النهار» ودارها. وذكرت المجلة في «التمهيد» انها تمكّنت من الحصول على نسخة «المغفور له رياض الصلح، رئيس مجلس الوزراء آنذاك».

حضرة صاحب المعالي وزير الخارجية والمغتربين المحترم،

اتشرف برفع تقرير «في الوضع الحاضر» الى معاليكم.

وضع هذا التقرير في اربع نسخ. وها اني ارفق بهذه الرسالة ثلاثاً منها:

احداها لفخامة رئيس الجمهورية، والثانية لدولة رئيس مجلس الوزراء، والثالثة لمعاليكم. أما النسخة الرابعة الباقية فاني ابقيها في حوزتي.

يعبر هذا التقرير عن الصورة التي تظهر بها احوال بلادنا من شرفة هذه العاصمة الاميركية. واعتقد أن الشرفة هذه هامة في تقرير مصائر الاشياء بالنسبة الينا. ولذلك ارجو معاليكم، كما ارجو فخامة رئيس الجمهورية ودولة رئيس مجلس الوزراء، أن يعيروا هذا

التقرير بعض العناية . واكون شاكراً جداً إذا تلقيت منكم رأيكم في الامور التي يبحثها التقرير . كما وارجوكم أن لا تضنوا عليّ بالاستفسار عن أية مسألة قد تظهر غامضة ، أو قد تبدو متناقضة مع غيرها ، أو قد تكون غير مشروحة شرحاً كافياً ، أو بالاستفهام عن أية قضية مهمة لم يتناولها التقرير بالبحث الواسع .

وآمل أن تتفضلوا وتبعثوا اليّ بملاحظاتكم على هذا التقرير .

أما القضايا الأساسية الأخيرة التي حرصت على اثباتها في متن التقرير فهي الآتية :

١ . فلسطين مرآة الوضع العربي العام ومحوره .

٢ . الفترة الحالية فترة انتقال موقت تستعد فيها اسرائيل للتوسع .

٣ . تريد اسرائيل ان تبرهن انها هي المختارة لأن ترث وتنمي الشرق العربي .

٤ . كما ان الشرق الادنى عرف في التاريخ ، كله أو جزؤه ، بالعهد الروماني أو بالعهد البيزنطي أو بالعهد العربي أو بالعهد التركي أو بعهد الانتداب ، هكذا تريد الصهيونية ان يعرف في عهده العتيد بالعهد اليهودي أو الاسرائيلي .

٥ . سيأتي العهد اليهودي حتماً إذا ظل العالم العربي على تأخره وتفككه الحاضرين .

٦ . ما يزال مصيرنا بيدنا .

٧ . وزن العرب لا شيء إلاّ في البلاد العربية ، وحتى هذا ضئيل في الوقت الحاضر .

٨ . سر تثقيل وزن العرب هو أن ينقلوا اتكاليتهم من كونها على الظروف وعلى العوامل الخارجية واللاانسانية ، الى أن تصبح على التخطيط العقلي المسؤول وعلى العوامل الانسانية والداخلية .

٩ . النور والمعرفة والحقيقة والحرية هي شرط النهضة المرجوة ، ولا مصير للعالم العربي بدونها .

١٠ . تجديد الجامعة العربية شرط أساسي لأية نهضة عربية .

١١ . تمشياً مع الجو الدولي الحاضر ، يمكن تجديد الجامعة العربية بشكل «حلف عربي» .

١٢ . خلاص العرب في تقوية جيوشهم .

١٣ . حان وقت بزوغ حركة تحررية صحيحة شاملة .

١٤ . لبنان وسوريا بين جميع الدول العربية مدعوان لقيادة هذه الحركة .

١٥ . لا بد أن تتقارب آخر الامر مصالح بريطانيا ومصالح اسرائيل في الشرق العربي .

١٦ . قد تصبح بريطانيا نصير العرب الاول إذا نهضوا وصادقوها .

١٧ . آمل بأوروبا أكثر مما آمل بأميركا وأدعو الى التفاهم الصريح الشامل البعيد المدى مع انكلترا وفرنسا .

١٨ . وزن العرب في أميركا لا شيء بالنسبة لوزن

اليهود .

١٩ . في كل تعارض جوهري بين المصلحة الاسرائيلية والمصلحة العربية، ستؤيد أميركا المصلحة الاسرائيلية .

٢٠ . احذّر كل التحذير من الارتماء الاعمى في فخ اغراءات المشاريع الانشائية الاميركية دون تمحيص تام لها ولعلاقة اليهود بها .

٢١ . برغم الحيف الذي اوقعته وستوقعه السياسة الاميركية بالعرب، فالخلق الاميركي في جوهره سليم طيب نبيل .

٢٢ . قد يحدث – في المستقبل البعيد – رد فعل شعبي في اميركا ضد السيطرة اليهودية على شتى نواحي الحياة الاميركية .

٢٣ . القوى المسيحية على العموم، والكنيسة الكاثوليكية على الخصوص، حليفة للعرب في نضالهم ضد الصهيونية .

٢٤ . احذّر من الارتماء في احضان الروس سياسياً .

٢٥ . يجب أن نتعاون تعاوناً وثيقاً مع نهضات آسيا وخصوصاً مع نهضة العالم الهندي .

٢٦ . لا يستطيع العالم العربي الآن ان «يكب» اليهود في البحر .

٢٧ . لا تستطيع اسرائيل الآن أن تكتسح العالم العربي وتسيطر عليه سيطرة عسكرية تامة .

٢٨ . الخطر المباشر المحدق هو بسط النفوذ

الصهيوني اقتصادياً .

٢٩ . سلاح العرب الامضى لدفع هذا الخطر هو مقاطعة اسرائيل الشاملة التامة .

٣٠ . اتوقع أن تتقدم الدول الغربية من اليهود والعرب بمشروع قوامه : (١) تعيين حدود اسرائيل وتثبيتها و(٢) تنمية العالم العربي باستقلال عن اسرائيل و(٣) ضمان استتباب الوضع الراهن بكفالة عدم اعتداء أي من الطرفين على الآخر .

٣١ . لبنان جزء لا يتجزأ من العالم العربي .

٣٢ . استقلال لبنان ضرورة تامة .

٣٣ . إذا هدد استقلال لبنان ففرنسا تلوذ عنه أكثر من أميركا أو انكلترا .

٣٤ . مبرر لبنان الاخير أمام ذاته وأمام الضمير العالمي هو امانته للحرية الاقتصادية والعقلية والروحية والكيانية .

٣٥ . خير ما يمكن للحكومة فعله في دعم لبنان وتقرير مصيره هو وقف جزء هام من عنايتها على تشجيع النشاط الحر الشامل المسؤول في شؤون الاقتصاد والعقل والروح .

وتفضلوا، يا صاحب المعالي، بقبول الاحترام الفائق .

شارل مالك

الوزير المفوض

الفصل الاول

تمهيد

١ . تاريخية الوضع

الوضع الحاضر، في العالم العربي عامة وفي لبنان خاصة، أزمة حادة: هي وليدة قرون من الحالات النفسية الكيانية المريضة ونتيجة نكبة فاجعة آل اليها انفجار التوترات المشدودة القائمة في جذور الحياة العربية واللبنانية وتآمر قوى عالمية صار لها عشرات السنين تخطط وتفعل.

كما وان هذا الوضع - لما تكمن فيه من مخاطر، ولما تنجلي في معالمه من ضعفات - يشكل في آن واحد مسرحاً لعمل القرارات الحاسمة التي يتوقف عليها مصيرنا ومصير العالم العربي، ومحكاً لاهليتنا لاتخاذ هذه القرارات ولانتزاع مصيرنا من أيدي القوى المتآمرة عليه، أو من جوف الفناء الذي نتدافع اليه.

٢ . فلسطين مرآة ومحور

كانت القضية الفلسطينية ولا تزال أخطر قضية عربية على الاطلاق، ومآلها بالتالي هو هو مآل العالم العربي بكامله . ولذا سينحصر تحليلنا على العموم في هذه القضية، في جذورها وواقعها وعواقبها القريبة والبعيدة . فأنا أذهب الى أن الوضع العربي بالنسبة الى فلسطين هو مرآة صادقة للوضع العربي عامة، ونكبة فلسطين هي صورة جلية للنكبة العربية، والضعفات التي ولدت الفشل العربي في فلسطين هي عين الضعفات التي ولدت وتولد الاندحارات الشاملة في العالم العربي، والقرارات الواجب اتخاذها بصدد مصير فلسطين هي هي القرارات الواجب اتخاذها بصدد العالم العربي بأسره . وبالنسبة الى الحياة العربية بكاملها، ان الوضع العربي بالنسبة الى فلسطين هو المنظار الذي يرى الوضع العربي بكامله : فيعلن ما استتر في الحياة العربية من مفاسد، ويظهر ما اختبأ بين ثنايا الوضع العربي العام من نكبات، وينير السبل المؤدية الى الخلاص أو الهلاك .

٣ . اعتقادات متأصلة واخطار انذرت بها

وان التحليل الذي سأقدمه في هذا التقرير لنتيجة مراقبة جديدة مسؤولة، في العالم العربي وفي الاقطار

الاميركية والاوروبية، خلال سنوات، وثمرة اختبارات تجمعت منذ دراستي هنا وفي المانيا من عام ١٩٣٢ حتى ١٩٣٧، ثم بعد عودتي الى هذه البلاد كخادم للبنان منذ ١٩٤٥ . كما وإن المبادئ الأساسية والاستنتاجات الأخيرة التي سأعبر عنها بصراحة تامة، ليست خواطر عارضة وليست بنت ساعتها، وانما هي عقيدة راسخة فيّ، أعلنتها وأعلنها في جد العارف المسؤول المنذر .

ولقد سبق لي أن نوهت بهذه المبادئ والاستنتاجات بل صرحت بها بشكل جلي لا يحمل لبساً، ان في زي تقارير عما يحدث، أو تكهنات بما سيحدث، أو توصيات أو اقتراحات . ويكفي أن اشير في مستهل التقرير الحالي الى تقاريري وبرقياتي السابقة، التي بعثت بها الى الحكومة الجليلة خلال السنتين الماضيتين حول المشكلة الفلسطينية . اني إذ أراجع اليوم هذه التقارير والبرقيات أجدها صادقة فيما تنبأت به وانذرت منه، كما وأني أجد ما أوردته فيها من تقديرات للضعف والتفكك العربيين، قد تحقق في حوادث الامس واليوم، حيث ظهر الضعف والتفكك هذان سافرين جليي المعالم .

ليس الاعتداد غرضي من هذه الاشارة الى ما سبق لي قوله، أو من هذا التنويه بصدق ما تنبأت به وحدوث ما أنذرت منه، وليست الكبرياء بالدافع اليهما . وانما مقصدي هو التدليل على رسوخ اعتقادي بما قلت

وأقول في أعماق كياني .

وأملي وطيد بأن الحكومة الجليلة، التي أولتني ثقتها ونظرت في تقاريري ورسائلي السابقة بعناية وانعام نظر، ثم تحققت - بفضل تطورات الاوضاع - من صحة ما كنت أقول به، ستولي هذا التقرير، المحتوي على اعتقاداتي الراسخة والاخيرة بصدد الوضع الحاضر، أوفى عنايتها، وستعير الآراء والتوصيات المتضمنة فيه ما تستحقه من اهتمام .

أرجو مراجعة تقاريري كلها بشأن فلسطين والوضع السياسي الاخير في الشرق العربي خلال السنوات الاربع الماضية . وخصوصاً التقارير والبرقيات الآتية :

١ . تقرير الدورة الخاصة الاولى للهيئة العامة للأمم المتحدة، بتاريخ ٢٩ أيار سنة ١٩٤٧، خصوصاً الاستنتاجات العامة الاخيرة (وخصوصاً الفقرتان الخامسة والثامنة لهذه الاستنتاجات)، والتأملات والتوصيات الاخيرة (الفقرة الخامسة عشرة للاستنتاجات)، خصوصاً الفقرات الفرعية (A), (F), (H), (J), (K) .

٢ . جميع برقيات نيسان وأيار وحزيران سنة ١٩٤٨ وخصوصاً برقية ٧ أيار الساعة السادسة مساء .

الفصل الثاني

مراحل الحركة الصهيونية

٤ . المصير : محق أو نهوض

كل ما حصل حتى الآن، في فلسطين وبصدد فلسطين، ليس سوى بداية . أما الخاتمة فقد تكون أما محق العالم العربي واستعماره، من قبل اليهود أو نهوضه من جديد عالماً عصرياً محترماً مشتركاً مع الحضارات الحية في خلق القيم وصيانتها . ومهما يكن من أمر فالمستقبل القريب سيكون أكثر ظلامة من الحاضر، وأقوى خطراً من الماضي . فالاندحار العسكري والفشل السياسي العربيان، وظفر اليهود بالاستيلاء على القسم الاكبر من فلسطين واشادة دولتهم المحمية التخوم والمعترف بها من أغلبية الدول الكبرى والصغرى، ودخول اسرائيل كعضو في الأمم المتحدة، كل هذا ليس عملاً تقف عنده مطامع اليهود وينتهي به خطرهم . ودولة اسرائيل، بوضعها وحدودها

الحاليين، ليست مستقراً للقوة اليهودية الغازية، بل هي مركز تجمع لها، وتربة لنموها، ونقطة لانطلاقها عبر حدودها وتوثبها على الاقطار العربية المتاخمة فالنائية: سياسياً واقتصادياً واجتماعياً، وإذا اقتضى الامر عسكرياً. وأظن الامر سيقتضي ذلك. وليست عديمة المعنى أو ضئيلة المغزى، أقوال اليهود: «ان اسرائيل قد بزغت من حربها مع الدول العربية أقوى قوة عسكرية في الشرق الاوسط»، «وانه سيكون في العالم، بعد خمسين سنة، دولتان فقط، الولايات المتحدة واسرائيل». ان في مثل هذه الاقوال ما هو حري بالتفحص والاكتراث.

لا أعرف جيلاً عربياً أو لبنانياً في التاريخ دعي الى تقريرات حاسمة دعوة جيلنا الحاضر. فالمصير أما فناء محتوم أو اطلال على الكيان الزاخر خيراً فاعتزامه فكينونته.

٥. طبيعة الفترة الحالية

الفترة الحالية هي فترة انتقال موقتة، تطول أو تقصر بالنسبة الى رد الفعل العربي في الدرجة الاولى والى تطور الوضع الدولي العالمي في الدرجة الثانية. هي خاتمة للمرحلة التمهيدية السابقة من مراحل الحركة الصهيونية، التي انتهت بنشوء دولة اسرائيل، وتوطئة للمرحلة التكميلية التالية، التي تهدف الى استعمار

واستعباد العالم العربي بالفعل.

هي – هذه الفترة الحالية التي تتوسط المرحلتين – فترة جناء لثمار ظفر الامس، واعداد لتحقيق أمنيتهم بالظفر في الغد. هي فترة راحة موقتة متوثبة: يعمل فيها على ترسيخ جذور الدولة اليهودية، في الداخل وفي الخارج وعلى التأهب للتوسع في العالم العربي ولتعميق استيلاء اسرائيل على مقدراته. وما القروض المالية الدولية تغدق على اسرائيل والحملات في الولايات المتحدة لجمع مئات الملايين من الدولارات، وسيول المهاجرين تفتح اسرائيل لهم أبوابها على مصاريعها، والمشاريع الانشائية التعميرية البعيدة المدى، والتسلح المستمر يؤمن للجيش الاسرائيلي أحدث المعدات الحربية، والتدريب العسكري يمرس بشؤون الحرب جيلاً بعد جيل من اليهود المستوطنين والقادمين – ما هذه كلها سوى عمل مخطط منظم تقوم به الادارة الاسرائيلية الساهرة، في الحاضر، لتكلل به ظفر الحرب الماضية، وتعد به للحروب القادمة.

٦. بعض خطوط السياسة اليهودية في هذه الفترة

ولئن بدا من الجانب اليهودي في هذه الفترة استعداد للتساهل في بعض الامور الفرعية ورغبة بالمهادنة، ولئن صدر بين الفينة والاخرى كلام معسول عن لسان

بعض المسؤولين الاسرائيليين، فذاك كله تخدير موقت، هدفه تهدئة الاعصاب وحسم التوتر، وتطمين خواطر العرب، وافساد مفعول تنبيهات الواعين، من العرب أو اصدقائهم، المنذرين بمخاطر المستقبل المتوقعة. وكذلك، الى حد بعيد، يجب تفسير مشاريع المساعدة والتنمية التي تصدر عن أميركا. إذ ما هذه في الغالب سوى «ترضيات» مغرية للشعور العربي المنفعل، وتهدئات ظاهرها ينم عن عطف على العالم العربي واهتمام بتقدمه، وباطنها يربط التقدم العمراني العربي باستتباب الدولة اليهودية، ويجعل الاول مشروطاً بالثاني.

ومن الناحية الثانية، ان كل ما بدا ويبدو من الجانب اليهودي من تعنت، لاسيما في المسائل الرئيسية والمصالح الكبرى، انما هدفه، أولاً، اقناع العرب بثقة اليهود بأنفسهم ومصيرهم، واعتزامهم على الدفاع عن بقائهم بأي ثمن. وثانياً، صيانة المصالح الضرورية لمشاريعهم التوسعية المقبلة. هذا التعنت أشد افصاحاً عن نواياهم الحقيقية من أي كلام معسول مسكن.

وعلى ضوء هذا التفسير لطبيعة الفترة الحالية في برنامج الحركة الصهيونية وفي السياسة اليهودية العليا، تتضح مغازي بعض اتجاهات الدعاية اليهودية التي نلاحظ خطوطها اليوم في حقول الدعاية المختلفة في اميركا. واخصص منها خطين رئيسيين:

اولاً: القول باستمرار حالة الخطر على اسرائيل،

في الحاضر والمستقبل، على الرغم من انتصارها على الجيوش العربية ونشوئها كدولة. ولقد كان هذا التشديد محور خطب «وايزمن» فور وصوله الى الولايات المتحدة منذ ثلاثة اشهر. فقد قال في ما قال:

«اليوم، وفي هذه اللحظة، تواجه حكومتنا الفتية مشكلتين اساسيتين: استيعاب المهاجرين، والتأهب لدفع الاعتداءات. لقد دفعنا هذه الاعتداءات حتى الآن، بيد انه لا يسعنا القول ان الخطر قد زال. اذ ان اعداءنا تحفزهم عوامل لا أود تعيينها الآن، قد يكونوا لا يزالون يضمرون لنا الشر. الا انهم لن يفوزوا. فالاعتداء، بالنسبة اليهم، محض مغامرة، اما بالنسبة الينا، فالدفاع قضية حياة أو موت».

والخط الثاني هو الزعم بأن اللاسامية قد بزغت من جديد في روسيا والدول الموالية لها، وباشرت في اضطهاد اليهود، لاسيما المفكرين منهم والفنانين، وان هذه الظاهرة هي نتيجة الصراع بين الديموقراطية القومية اليهودية والمسكونية الشيوعية، وتتمة لسلسلة الاضطهادات الموجهة الى اليهود خلال التاريخ.

وبقطع النظر عن المتضمنات الثانوية التي تنطوي عليها مثل هذه الادعاءات، فان غرضها الرئيسي هو الاستمرار في عرض الوضع اليهودي كوضع محفوف بالمخاطر، تتهدده عوامل قاسية ينفر منها الرأي العام الاميركي بشكل خاص، والعالمي عامة. ولست بحاجة الى التذكير بمدى الفائدة التي جناها اليهود في ما

مضى من اللعب على أوتار العطف العالمي، واستدرار شفقة الشعوب سبيلاً لضمان مساعدتهم. ولعل الصهيونية خشيت ان يكون في قيام دولة يهودية معتزة بقوتها وظفرها ما يخفف من الشفقة والعطف المشار اليهما، وما يضعف بالتالي من حرارة الاستعداد لمساندة اليهود باسم «العواطف الانسانية». فلجأت الى هذه الوسائل لتحيي ذكريات الاضطهادات السابقة ولتبقي حرارة العطف المتوقع فتوره. ولعل وراء هذه الحملات الدعاوية ايضا هدف الحؤول دون اتجاه العطف العالمي نحو المنكوبين واللاجئين العرب، واعادة مجرى هذا العطف نحو اليهود أنفسهم.

ان براعة اليهود في استغلال الاوضاع المختلفة بالوسائل المناسبة لها، وتسخيرها لصالحهم ولتنفيذ مشاريعهم، يجب ان نكون لها دائما بالمرصاد. ووراء مناهج السلوك اليهودي في هذه الفترة الحالية، يجب ان ننشد دوما العوامل المقررة لها، تلك العوامل المتأتية بدورها عن مقتضيات ظفرهم في المرحلة الصراعية السابقة، وحاجات مشاريعهم في المرحلة الصراعية القادمة.

بعد هذا التحليل الموجز لطبيعة الفترة الحالية في برنامج الحركة الصهيونية، وتفسير السياسة اليهودية العليا على ضوئها، حري بنا ان نعود الى الوراء قليلا، لنحلل بعض التحليل طبيعة المرحلة السابقة.

٧. المرحلة التوطيدية السابقة.

لقد كان هدف اليهود الاول، منذ نشأة الحركة الصهيونية، اقامة دولة يهودية في فلسطين. ولم يكن قبولهم بوعد بلفور - المطاط في صيغته، والخاضع لتأويلات مختلفة - سوى خطوة نحو مطالبتهم بأكثر مما ينص عليه الوعد عينه حرفياً. ان هذا القول ليفتح أفقاً واسعاً لبحث علمي تاريخي هادئ، يرجع فيه الباحث الى اقوال الزعماء اليهود وكتاباتهم، والى استنتاجات بعض دارسي القضية الفلسطينية ومعالجيها، والى تصريحات المندوبين اليهود في الامم المتحدة بصدد التمييز بين الوطن القومي اليهودي والدولة اليهودية، والى الأعمال اليهودية، في الفترات المختلفة والنهج المخطط الذي يتبدى اليوم للناظر إليها في تسلسلها وفي اتجاهها، والذي كان لا بد له ان يتّضح للمراقب الثاقب النظر اثناء حدوثها، واخيراً، الى طبيعة تطور حركة كهذه، تشمل شعباً غريباً نازحاً الى أرض جديدة لا يريد ان يندمج بشكل من الاشكال مع سكانها الاصليين، وحتمية اتجاه هذا التطور نحو تشكيل دولة خاصة بهم ذات سيادة، في عصر هو عصر «الامم المتحدة»، تسود فيه فكرة «الامة المستقلة ذات السيادة» (تلك الفكرة المختلفة المعاني والمدلولات، بحيث انها تنطبق في آن واحد على «دولة» كأوكرانيا لا تتمتع بسيادة حقيقية، ودولة كالولايات المتحدة لا شك

بسيادتها على نفسها) . ولا مفر والحالة هذه من تحول المجتمع اليهودي فيه الى دولة مستقلة ذات سيادة، ليكون له مقامه بين الشعوب الأخرى على صعيد المرتبة الدولية المميزة لهذا العصر . لكني لا ابغي في هذا المقال ان اخوض في مثل هذا البحث، على الرغم من اهميته، وعلى الرغم من افتقار العالم العربي الى مثله، بينما الصهيونيون ينفقون بسخاء على مشاريع بحثية دراسية كهذه، تتناول كل ما يعنيهم عن بعد أو عن كثب .

لم يكن هذا الهدف - هدف اقامة الدولة اليهودية - بالنسبة للسياسة الصهيونية العليا العوبة تلهو بها، أو أملاً تحلم به وتترك للظروف والمقادير أمر تحقيقه . بل كان خطة محكمة، انصبت القيادة الصهيونية على تنفيذها بصبر وجلد، بمهارة واتقان، في مراحل ثانوية وفي قفزات وثابة، مكبة حيناً على التفاصيل الفرعية، واحياناً على الخطوط الكبرى والأعمدة الفقرية .

ولما كانت كل حركة من طراز الحركة الصهيونية تتطلب شرطين اساسيين، ولا يتم ظفرها بدونهما، فقد عمد قادة الصهيونية على تأمين هذين الشرطين والاستفادة منهما الى أبعد حد .

اما الشرط الاول فهو توافر الـ Mystique الضامن جمع قوى الشعب وتوحيد ارادته والهاب عواطفه وحفز اعتزامه المشترك، وتوجيه هذه كلها نحو غرض واحد وفي صعيد فعل واحد . وقد توافر مثل هذا الـ Mystique

الروحي والشعبي لقادة الصهيونية بشكل منقطع النظير، في التراث العبري النبوي المستمر فعالاً في نفوس اليهود جيلاً بعد جيل، والمتغلغل في نفوس الغربيين المسيحيين . وكان هذا وحده كافيا، لا لإلهاب عواطف اليهود وللتخييم على آمالهم ليل نهار يحفزهم الى السعي الحثيث للرجوع الى ارض الميعاد فحسب، بل أيضا لتوفير عطف الغرب المسيحي على قضية اليهود، واشتراك المسيحيين بآلامهم، ومساعدة الشعوب والحكومات الغربية اياهم في تحقيق امنيتهم الكبرى .

وأما الشرط الثاني، فهو التخطيط المحكم الدقيق، الشامل جميع نواحي الحياة، الحاشد كافة القوى البشرية والمادية، الواضع كل موهبة وكل قدرة في مقامها اللائق بها، والرابط كل هذه المواهب والقدرات برباط الوحدة الشاملة المنسقة . ولهذا التخطيط مغزى بعيد، يمثل العزم على التنفيذ، وادراك اسبابه ووسائله وشروطه والاستعانة بالعلم وبالفن وبالمواهب الادارية التنظيمية، وتكاتف المجموع لبلوغ المأرب المشترك . تتنافر، دون التخطيط ارادات المجموع، وتتشعب نشاطاته، وتتفرق مواهب ابنائه، فيتضاءل مدى انتاجه كمجموع ولو بلغ انتاج كل من افراده الذروة . اما اذا سبق التخطيط الفعل ورافقه، فان الجهود الفردية مهما ضؤلت، وافعال الافراد ولئن صغر شأنها، لتترابط لتكون بمجموعها المتناسق فعلاً ملموساً ونجاحاً لارادة المجموع .

وهكذا فبفضل الـ Mystique الذي يوفره لهم تراثهم، وبفضل التضامن الذي يوفره لهم تنظيمهم وتخطيطهم واستعانتهم بالعلم والمعرفة والفن، استطاع قادة الصهيونية ان يريدوا فيفعلوا فينالوا. ذلك ان الصهيونيين ادركوا ما سهي عن بال العالم العربي: ان التاريخ تقرره الاعمال الحاسمة لا الحجج القانونية، وان قيام دولتهم او تلاشيها يتوقف على قوتهم لانجاز الامر المفعول لا على مقدرتهم على المماحكات الشرعية، وان الوسائل الاذاعية والمفاوضات السياسية كلها لا قيمة لها على الاطلاق في تقرير شكل التاريخ، الا اذا استندت الى قوة حاسمة تنفذ ارادتها، وان التوازن السياسي والصراع الدولي هما في النهاية توازن قوى واقعية لا صراع حجج.

وعلى هذا النحو تقدمت الصهيونية من حلم يدغدغ آمال النفر الضئيل من قادتها الى فعل شعبي مجموعي ظافر. ففي سبيل هذه الخطوة جندت الصهيونية كل قوى اليهودية العالمية. فسخرت الرأسمالية اليهودية لشراء الأراضي وانشاء المستعمرات واقامة المنشآت، من زراعية وصناعية وتعليمية وطبية وما اليها، وسخرت النفوذ اليهودي العالمي لكسب الرأي العام العالمي والحصول على عطف الشعوب ومساندة الحكومات، ودرّبت شبانها على الخدمة العسكرية، ومدّتهم بالاسلحة، حتى اصبح لها جيش كان كافياً للتغلب على جيوش الدول العربية كلها. واقامت

شبكات للتجسس وحلقات للدعاية ومؤسسات لتأمين الهجرة السرية والعلنية. وهكذا سارت قدماً، جهاراً وفي الخفاء، نحو تحقيق خطتها الاولى، على النحو الذي بات الآن جزءاً من التاريخ: من تاريخ الفوز الصهيوني والخذلان العربي ومن تاريخ العالم.

تلك كانت خطة الصهيونية في المرحلة الاولى بعد نشوئها. ولقد نفذتها تنفيذاً محكماً انقض على شعوبنا وعلى المراقبين غير المطلعين كالمفاجأة الصاعقة، لكنه كان بالحقيقة نتيجة محترمة لنشاط الصهيونيين ووعيهم وتفانيهم وانصبابهم كلياً على مشروعهم، من جهة، ولفتور العرب وضعف ايمانهم وسطحية نظراتهم وتسرعهم في مشاريعهم وتفككهم وبلبلتهم، من جهة ثانية، ولتواطؤ الدول الغربية مع الصهيونية الدولية، من جهة ثالثة.

تلك هي المرحلة التي انتهت وباتت جزءاً من التاريخ، المرحلة التي تكلل الصهيونية اليوم ظفرها فيها بما اسميناه في ما مر «سياسة فترة الانتقال»، المرحلة التي لم تكن سوى تمهيد للمراحل القادمة، المرحلة التي غرست في وسط التربة العربية نبتة غريبة، وفرضت على الحياة العربية عناصر جديدة، وفاجأت التاريخ العربي بمهمات وواجبات، اما ان يضطلع بأعبائها ويواجهها ببصيرة وحزم ووحدة وتنظيم، او ان ينتفي كونه تاريخاً حياً لشعوب تبغي الكرامة والحياة.

ويقيني راسخ انه لو وعى العالم العربي،

والمسؤولون فيه بوجه خاص، المغزى الأخير والنتائج التاريخية الحاسمة الناجمة عن كل قرار يتخذ وكل عمل يقام به او يتقاعس عنه - لو وعى المسؤولون في العالم العربي كل ذلك، اثناء نمو الحركة الصهيونية، ولاسيما اثناء المحنة عام ١٩٤٨ ونفذوا ببصائرهم خلال حجب المستقبل لرؤية الرزايا التي ستنجم عن ظفر الصهيونية، ومصير العالم العربي القاتم تخطه انتصارات اليهود يوماً بعد يوم، واو شاركوا الاجيال العربية القادمة ببعض آلامها، واحسوا ببعض الذل والعار الذي قد يلصق بأبنائنا واحفادنا - لو فعلوا كل ذلك، لما هدئ لهم بال وهم ينعمون، ولما ارتاح لهم ضمير وهم يتخاذلون ويتقاعسون، ويتزاحمون ويتنابذون، ولتفانوا، فتفانت شعوبهم من ورائهم، اكثر بما لا يقاس مما فعلوا، ولتضامنوا فتضامنت معهم شعوبهم بدلاً من ان يكون تعاونهم كلامياً وشكلياً ودعاوياً، ولاتخذوا بالتالي من اسرائيل موقفاً جدياً فدرأوا عن شعوبهم بعض الخطر الاسرائيلي ان لم يكن كله.

اما الواقع، فهو ان العالم العربي لم يعرف، قبل المحنة واثناءها، مغزى ما يحدث له. بل انه لم يدرك، بعد المحنة، وبعد ان اصبحت اسرائيل امراً واقعاً، معناها الاعمق ومتضمناتها الاخيرة ونتائجها القريبة والبعيدة. فها هو يلهو، اما بالتحدث عن أسباب الفشل وعوامله، ويلقيها على عاتق سواه، او بالتنازع والخصام وتفسيخ كلمته واضعاف ما تبقى من وحدته

ومهابته لدى ابنائه ولدى الغريب، او بالتحدث عن الدورات القادمة من النضال ضد الصهيونية، دون الاعداد لها ودون العمل لكي تكون الدورات القادمة خيراً من الماضية.

وهنا مجال ايضاً، لبحث علمي هادئ، مستند الى تصريحات المسؤولين العرب واقوالهم وخصوصاً اثناء المحنة، والى أعمالهم ومواقفهم السلبية المستمرة، للتدليل على ما اذهب اليه من ان العالم العربي لم يكن واعياً كل الوعي معنى ما يحدث له وما سيجره عليه ظفر اليهود في المستقبل من مصائب.

لقد برهن الصهيونيون للرأي العام العالمي انهم جديرون بالبقاء كشعب، ومؤهلون لأن يقيموا دولتهم في صميم العالم العربي. ولقد نجحوا في الكشف عما استتر من معايب العالم العربي، للعرب أنفسهم وللغرب أيضا. ولقد ظفروا باكتساب احترام العالم لهم، وامتهانه لنا، حتى لقد بات الواحد منا يخجل من نفسه ومن وضعه، امام الاجانب وفي الاوساط الدولية، بعد ان كان قبيل المحنة الفلسطينية والظفر الصهيوني يلاقي الاحترام ويتمتع بالاكرام، بالنسبة لشخصه ولدولته وللعالم العربي الذي هو احد ممثليه.

ان كلاً منا يلاحظ، في الاوساط الدولية الاجنبية، عدم الاكتراث بنا، عالماً وحكومات وشعوباً. وكل منا يلمس الفرق في النظرة الينا بين الامس واليوم، قبل فشلنا في فلسطين وبعده. والكثيرون من ممثلي الدول

العربية قد حدثوني عما يشعرون به، في اتصالاتهم ومقابلاتهم في الدوائر الرسمية هنا، من ذل. لقد بتنا في وضع شبيه بوضع الالمان بعد انكسارهم - بل في وضع اقل منه كرامة. فنحن لا نمنح حتى كرامة اعتبارنا اعداء، لئلا لا يكون لنا في العداء السابق للانكسار بعض العزة التي تخفف من وطأة ذل الانكسار. اعتبار العدو عدواً يكسبه منزلة الند، وصفة مشرفة: وهذه المنزلة وهذه الصفة يضن علينا بهما. واذا لم يرافق هذا الانقلاب في النظر الينا، تحد صريح او اهانة، فما ذلك لأن المستخفين بنا هم اقل استخفافاً مما هم، بل ذاك وحسب لتلافي حدوث انتفاض وفوضى في العالم العربي، وبالتالي لتسهيل امر ابتلاعنا بانتظام.

ذلك ما ناله الصهيونيون في ظفرهم، وذلك ما نلناه في انكسارنا.

لقد نجح الصهيونيون في كل هذا. بيد انهم لن يقنعوا بهذا النجاح الجزئي، ولن يكتفوا بهذا القدر من الظفر، لأن مطامحهم لا تنتهي عند الرقعة من فلسطين التي استولوا عليها، ولا تقف عند الحدود التي اعترف لهم العالم بها. ولأنهم، فوق هذا، ليسوا بالشعب الذي يعرف كيف يظفر ثم يجهل كيف يتمم ظفره ويفيد منه الى ما هو ابعد منه مدى.

لقد برهنوا في المرحلة الاولى قدرتهم على تنفيذ ارادتهم، وجدارتهم بالبقاء كدولة. اما المرحلة الثانية فهمهم فيها ان يبرهنوا انهم هم المختارون لانماء الشرق

الادنى. وانهم هم القوة الحقيقية فيه وهم ممثلو مصالحه ومقررو ارادته.

٨. المرحلة التوسعية القادمة

ان الحركة الصهيونية، بطبيعة حالها، حركة «ديناميكية» وثابة، والسياسة الصهيونية في صلبها سياسة توسعية طموحة. ان فلسطين بكاملها لا تكفي حاجات اليهود، ولا تشبع نهم قادتهم. وان استيطان اليهود في فلسطين، اذن، ليس وحسب انتزاعاً لفلسطين من ايدي اهلها العرب، بل هو ايضا تهديد دائم مستمر (يقوم ما دام الاستيطان نفسه قائماً) للعالم العربي بأسره.

ان اسرائيل تريد السيطرة على العالم العربي، انها تريد ان تكون وريثة جميع عهوده السابقة، فكما انه عرف مرة، كله او جزؤه، بالعهد الروماني او البيزنطي او العربي او التركي او عهد الانتداب، هكذا تريد الصهيونية ان يعرف في عهده العتيد بالعهد الاسرائيلي. العالم العربي هو المدى الحيوي للصهيونية.

واذا كان العالم العربي سيواجه اسرائيل في المستقبل، بعين التفكك واللامبالاة والسياسات المرتجلة والدفاع الفاتر غير الكلي، التي واجهها بها في الماضي. واذا لم يعد العالم العربي الى نفسه وينفض عن كيانه نفضاً ثورياً جدياً اساسياً كل ما لازم تاريخه

القريب من انغلاق على النفس وجفجفة من الحضارة الغربية النيرة ونشوة بالماضي الميت تعيقه عن واجبات اليوم ومهمات الغد، واذا لم يتناول نظم حياته، في السياسة والاقتصاد والثقافة والاجتماع والدين، بالاصلاح الصادق الجريء بدلاً من الترقيع، واذا لم يجابه الجيل العربي الحاضر مهمة التقريرات الحاسمة التي هو مدعو اليها بل تقاعس عن التقرير وتهرب من عبئه، او لجأ الى تقريرات فنائية طائشة او الى الاخذ بالقشور والسطحيات: اقول اذا ظل هذا هو الحال في العالم العربي، فاني اجزم بأن مستقبلنا هو استعمار واستعباد من قبل اليهود.

واني اجزم بأكثر من ذلك. اجزم بأنه في تلك الحالة لن يحزن على استعبادنا أحد، بل سيقول المسؤولون في الغرب وسيشاركهم في هذا القول مسؤولونا ومفكرونا نحن: «ليرث اليهود العرب، فالحياة خير من ورث الموت، والموت الكياني لا تذرف عليه دمعة واحدة».

فسيأتي يوم، وقد يكون قريباً ان لم يكن حاضراً، لا يحل فيه ولا يربط في العالم العربي شيء، الا برضى اليهود. ويكون عند ذاك ان الحكومات والنظم والاشخاص، تثبت او تقلب، بناء على رضى اليهود او غضبهم. فرئيس دولة او رئيس حكومة ينهض او يسقط لأن تل افيف، ومن ورائها اليهودية العالمية المتمركزة في نيويورك وفي غيرها من العواصم الغربية، ارادت

نهوضه او سقوطه. وقد افهمت مراراً ان اموراً هامة جداً، كمشاريع انماء وقروض دولية ومعاهدات واتفاقيات للسلامة في الشرق الاوسط، لم يبت بها او صرف النظر عنها لأن اصحاب الحل والربط فيها سبق واستشاروا اليهود بشأنها.

وسيأتي يوم يصبح فيه مصيرنا بكامله مربوطاً بالدرجة الاولى باليهود، بعد ان كان في ما مضى مربوطاً بارادتنا وبارادات الدول الغربية. فيظهر اننا على عتبة العهد اليهودي في الشرق الاوسط. وسيأتي يوم يثبت فيه اليهود للغرب انهم هم ناقلو الحضارة الغربية الى الشرق الادنى، وانهم هم حملة مشعال التقدم وهم منفذو التعمير فيه. وسينجحون في اقناع الغرب وفي اقناع بعض سياسيينا ومفكرينا نحن، انهم هم واسطة الاتصال بين الغرب والشرق الادنى، في الاقتصاد والعمران، في الثقافة والفكر، وفي السياسة، وانهم هم الجديرون بتمثيل الشرق الادنى، في مصالحه واراداته وقواه، لدى الغرب. ولقد بدا اليهود بالفعل منذ اليوم يتغنون بهذا المصير، ويعلنونه محتم القيام.

وسيأتي يوم، ان لم يكن قد حضر، تصبح فيه كافة المشاريع الاقتصادية التعميرية، وكافة الخطط الانقاذية (بالنسبة لتنمية البلدان التي لم يكتمل نموها الاقتصادي بعد: وبالنسبة للاجئين والمنكوبين) مستندة في اساسها الى الارادة اليهودية، مستهدفة في دوافعها تخدير العرب والهاءهم عن عار قيام اسرائيل في وسطهم،

رامية في غايتها الى ارغامهم على الاعتراف بها والتعاون معها . وستكون هذه المشاريع مركبة بشكل يؤدي في الدرجة الاولى الى ترسيخ اركان اسرائيل ، والى جعلها حجر الزاوية في بنيان الجهاز الاقتصادي ، وركن التقدم العمراني ، في الشرق الأدنى . اني احذر من الوقوع في حبائل هذه المغريات التي هي بالحقيقة رشوة للشعوب والحكومات للقبول بالامر الواقع ، وفخ لتوطيد اركان الاستعمار اليهودي في العالم العربي .

اني احذر من الظن بأن الاستفادة من المادة الرابعة من بيان ترومن تتم باستقلال عن الارادة اليهودية ، او انها تتم لصالح العرب دون اليهود . وان الكثيرين من محبي العرب أيضاً ، بين الاميركيين الاحرار ، يخشون على العرب الوقوع في هذه الحبائل .

وسيأتي يوم ، ان لم يكن قد حضر ، تصبح فيه اسرائيل - بمحض وجودها وبطبيعة اتجاهاتها ومصالحها - عقبة تحول دون قيام المشاريع السياسية والعسكرية التي من شأنها وقاية مصالح الشرق الادنى . وعلى سبيل التمثيل اقول : ان «حلف البحر الابيض المتوسط» الذي ترغب بعض الاوساط السياسية في قيامه ، والذي تدعو اليه بعض دول البحر المتوسط (كتركيا مثلاً) ، قد ينتفي قيامه اطلاقا ، لأن مصالح اسرائيل تحول دون انضمامها اليه : اي انه ما دامت اسرائيل تتمنع عن الانخراط في حلف موجه ضد

روسيا ، فان مثل هذا الحلف غير محتمل الحصول ، رغم فائدته القصوى في تنسيق أمن بلدان حوض البحر المتوسط .

وأخيراً قد يأتي يوم تتألب فيه الصهيونية ودول شرقية اخرى - كتركيا مثلا - متآمرة على العالم العربي . واني ألمح من الآن دلائل واضحة لقرب وقوع ذلك اليوم . وما دام اتكالنا في الدرجة الاولى على غيرنا ، وعلى الظروف ، فليس شيء مستحيل الوقوع أو بعيد الحصول . وما دامت الصهيونية ناجحة في اثبات تفوقها وقوتها ، فلا ننتظرن من دولة شرق-ادنوية او ذات مطامح في الشرق الادنى ان تعادي الارادة اليهودية او تعاكس مصالح اسرائيل اكراماً لخاطرنا او حباً بسواد عيوننا . وما اقوله الآن عن تركيا سأقوله في فصل قادم عن بريطانيا وسواها من الدول الغربية .

اني لا اصف هذه الاخطار المحتملة عن روحية انهزامية في نفسي ، ولا اتكهن بها كأنها اخطار محتمة الحصول . بل اني انذر منها ، اولاً لأني اعلم علم اليقين انها عين امنيات اليهود ، وثانياً لأني ادرك ايضاً ان تحقيق اليهود لهذه الامنيات ليس مستحيلاً ، بل ليس عسيراً ، ما دام العالم العربي على الحال التي هو فيها الآن .

اما يقيني بأن هذه هي عين امنيات اليهود فمتأت عن تحليلي لمستلزمات بقاء دولتهم وازدهارهم فيها ، وعن معرفتي بنفسية اليهود الطماعة الطموحة ، وعن

احساسي بعواقب نشوة الظفر في نفوس شعب اتصف تاريخه الطويل بالتشريد والاضطهاد، ثم آتته الظروف فصمم وتمرد وفاز، وأخيراً، عن ادراكي لطبيعة الحركة الصهيونية الوثابة الديناميكية.

وفضلاً عن ذلك، فاني أقدر أيضاً ادراك قادة الصهيونية لمؤاتاة الظرف الحاضر لهم من كل الوجوه، وجرأتهم بالتالي على التسابق مع الزمن لتوطيد أركان دولتهم بالتوسع والتعمق. ان اسرائيل تدرك امكانية قيام نهضات جدية في العالم العربي تحول مباشرة دون اتمام البرامج الصهيونية التوسعية، وقد تحول في السياق الطويل أيضاً دون بقاء الدولة اليهودية. ولهذا فإن مشاريع الغزو الاسرائيلي للعالم العربي ليست، بالنسبة للصهيونيين، مشاريع بعيدة يمكن تأجيلها أو يصح التروي قبل المباشرة بتنفيذها، بل هي، في نظرهم، ملحة في وجوبها وفي ضرورة السرعة بإنجازها.

ولسنا بعيدين عهداً عن الزمن الذي كانت تتسابق فيه الاحزاب الصهيونية الى المناداة بمطامح أوسع مدى من برنامج «المعتدلين» من قادة اليهود، والى الدعوة لتحويل لا فلسطين فحسب («من دان الى بئر السبع»، حسب تعبير الانشودة الشعبية اليهودية، المستوحاة من التوراة)، بل شرقي الاردن وأجزاء من لبنان وسوريا أيضاً، الى وطن قومي يهودي، وان الحزب الاصلاحي، الذي يدعو رسمياً الى هذا، والمنظمات الارهابية المتطرفة بمجملها، التي تنزع نحو الدعوة

نفسها، ليست بغريبة عن نفسية الشعب اليهودي عموماً، وليست على العموم بأبعد طموحاً من مجموع الشباب اليهودي. وقد يكون وراء تأييد بعض المقامات الصهيونية لمشروع سوريا الكبرى (كما كان يتجلى مثلاً في جريدة «البالستين بوست»)، أكثر من محض الادراك بإمكانية تفاهم السلطات الصهيونية مع السلطات الاردنية: أي انه قد يكون وراء هذا التأييد ادراك لسهولة غزو اليهود اقتصادياً وثقافياً لسوريا ولبنان وشرقي الاردن وهي موحدة تحت نظام موال لليهود بالنسبة لغزو كل من هذه البلدان وهي مستقلة تحت انظمة تختلف في ما بينها في مدى استعدادها للسماح بالتسرب الصهيوني.

وأما يقيني بأن تحقيق هذه الامنيات اليهودية ليس مستحيلاً ما دام العالم العربي على تأخره وتفككه، فناتج عن اعتقادي بأن الظفر اليهودي في المرحلة الاولى لم يتأت وحسب عن تأييد العالم لهم شفقة منه عليهم (بعد اضطهادات هتلر التي حركت الوجدان العالمي)، ولا عن تفوق اليهود الصناعي والمالي، ولا عن نفوذهم في الدول الكبرى، لا سيما الولايات المتحدة التي تتمتع بالسيطرة في منظمة الأمم المتحدة وتقرر توازن الارادات الدولية فيها، بل تأتى، في الدرجة الاولى، عن تأخر العالم العربي وشعوبه وحكامه تأخراً لا يتصوره العقل. وبديهي انه، ما دام هذا التأخر في العالم العربي مستمراً، فإن الظفر

اليهودي في المستقبل مرجح كما كان ظفرهم في الماضي.

ما دام العالم العربي قانعاً بوضعه الحاضر، من التأخر في العمران، والنظم الابتدائية في الاقتصاد والحرمان المادي الشنيع لأربعة اخماس اهليه، والهلهلة في تركيب الدولة، والتفكك في ارادات حكوماته، وعدم الاتحاد في سياساتهم العليا، وما دام العالم العربي في عزلته الروحية والعقلية والكيانية، منكمشاً على نفسه، غارقاً في ماضيه، لا يريد أن يفيد أو يستنير، وما دام العالم العربي مغلوباً على أمره سياسياً وغوغائياً وعاطفياً وخيالياً ولغوياً، وما دام لا ينهض فيه سيد قوي محرر يطلب العز والوجود والنور والحياة ويغدقها جميعاً بسخاء على شعوبه التعسة: فليس من قوة على الاطلاق تستطيع أن تقيه من الانهيار، أو أن تصونه من سيطرة اليهود عليه.

اني ازن كل كلمة اقولها واني مسؤول عن كل مفهوم أعنيه. واني متأكد من كل ما ذكرته فوق من مناحي الخطر اليهودي على العالم العربي. ان امكانية خلاص العالم العربي لا تزال قائمة، ولكنها مرتبطة بإرادته وبوعيه، وبتقريره تقريراً جدياً، وبقيامه بعمل حاسم جريء يصلح فيه حاله، ويدفع بنفسه فيه من وهاد التأخر الراهنة الى طريق التحرر الصحيح والفلاح.

ولعمري لا أخال هذا واقعاً إلا إذا تحنن الله علينا جميعاً برسول صادق أمين، أو بزمرة رسل متفاهمين،

يجمعون شملنا ويقودوننا، بمحض كيانهم الشخصي الهادي، وبتفكير زهدهم وآلامهم، الى ثورة اجتماعية سياسية تفي بمقتضيات الساعة.

في انتفاضة العالم العربي، بقيادة أمينة نيرة، نحو الحياة الحرة الصحيحة الطالبة الكيان الحقيقي فوق أي شيء آخر، أمله الوحيد بالخلاص من الخطر اليهودي.

أما تقاعسه عن هذه الانتفاضة فسقوط أكيد في الهوة التي يعدها له اليهود.

ولذلك، فمن الخطأ والخطر أن نلقي على الصدف اتكالنا، أو أن نؤمن بأن الظروف وحدها كفيلة بتهديم اسرائيل أو بدرء خطرها.

مثلاً، يقولون ويرددون: ان اسرائيل لن تلبث، بعد انضمامها الى الأمم المتحدة، ان تواجه صعوبات سياسية من شأنها أن تقضي عليها. فكيف ستصوّت في المنظمة، ومع أية جبهة، وكيف سيكون موقفها من صراع المعسكرين، الاميركي والروسي. وكيف ستحافظ على التوازن الذي نجحت حتى الآن في حفظه، بين هاتين القوتين. أن مثل هذا الجدل لا قيمة له على الاطلاق في رأيي، لاسيما وأنه ليس عسيراً على اسرائيل أن تجد لنفسها مخرجاً من مثل هذه المآزق المزعومة. ومهما يكن من أمر، فإن اتكالنا على مثل هذه العوامل «الحظية» سيلعب لصالح اليهود وعلينا، وإذا طلب اليّ أن اجمل في عبارة واحدة معيبتنا الاخيرة التي جرّت علينا جميع الويلات، لقلت دون ما تردد:

هي هذه الاتكالية المظلمة التي بها نعزو الى الحظ والصدف فعلاً ايجابياً حقيقياً، فنقضي بذلك على أية قدرة اصلية فينا على التخطيط الذاتي المسؤول وعلى التعليل العقلي القلق.

وكما أن الاتكال على الظروف والصدف خطأ، فكذلك من الخطأ الاتكال الكلي على هذه أو تلك من الدول الاجنبية الغربية، حتى والشرقية. ان الدول لا تحدد موقفها من القضية الفلسطينية بالاستناد الى الاعتبارات القانونية والشرعية، أو الى اعتبارات الحق والعدل، حتى ولا الى اعتبارات «الصداقات التقليدية». بل ان ما تنظر اليه الدول في الدرجة الأولى وتأخذه بعين الاعتبار في موازنتها بين الفريقين، انما هو قوة كل منهما وقدرته على تنفيذ ارادته وصيانة مصالح حلفائه. فإذا نجح اليهود في اقناع العالم انهم هم القوة الأولى في الشرق الادنى - وقد نجحوا حتى الآن، جزئياً على الاقل، في هذا - بات من الممكن، بل من المحتمل، أن تنقلب الدول المناصرة للعرب، والدول المحايدة (فضلاً عن الدول المؤيدة للصهيونية)، من جانب العرب الى جانب اليهود. وعلى هذا الضوء سأعرض الآن للامكانيات المتعلقة بموقف بريطانيا واميركا منا في المستقبل.

الفصل الثالث

بريطانيا والعالم العربي

٩ . تضارب مصالح بريطانيا ومصالح اسرائيل

اني اعتقد انه لا بد من حدوث تصادم بين السلطة والمصالح البريطانية في الشرق الادنى، المستقرة هناك تقليدياً، والراغبة في التزايد والتعمق والاتساع من جهة، وبين السلطة والمصالح اليهودية، التي استقرت حديثاً في رقعة صغيرة هي اسرائيل، والرامية الى الامتداد والتأصل في طول الشرق الادنى وعرضه، من جهة ثانية. ان مصالح هاتين القوتين هما حتماً على طرفي نقيض. وسيؤرخ تاريخ اقليمنا بالنسبة الى تفاعل هاتين المصلحتين وتناسقهما بعضهما مع بعض، بالاضافة الى تفاعلهما مع المصلحة العربية الاساسية.

ان بريطانيا تعلم انها لن تستطيع ارغام اسرائيل على اعطائها حرية التصرف في الشرق الادنى بعد أن تستتب سيطرة اسرائيل عليه. ولذلك، فإني اشك أن تكون

بريطانيا راغبة بالسماح لهذا النفوذ الاسرائيلي أن يزداد، أو بالتنازل له عن امتيازات تتمتع هي بها الآن أو تطمح بالتمتع بها، أو أن تتيح لاسرائيل أن تسرح وتمرح في حوض البحر المتوسط، بقدر ما يظهر أن الولايات المتحدة مستعدة لاطلاق يد اسرائيل فيه.

١٠. امكان اطلاق أميركا ليد بريطانيا في الشرق العربي

واني أتوقع أن تنشأ حالة، عاجلاً أو آجلاً، تستعيد فيها بريطانيا نشاطها وازدهارها، وتلتئم فيها الجراح التي أثخنتها بها الحرب، فتباشر إذذاك باستعادة استقلالها الاقتصادي والسياسي عن أميركا، وتطالب أميركا بتركها هي تعالج قضايا الشرق الادنى حسب مصالحها وسياستها التقليدية. فإذا اعتزمت بريطانيا أن تعيد سلطانها في الشرق العربي وتكون هي، من ضمن نطاق عصر الأمم المتحدة الحاضر، المهيمنة أخيراً على مصيره ومقدراته، وإذا أصرت على هذا الاعتزام في وجه أميركا، بعد أن تكون قد تحررت الى حد ما من السيطرة الاميركية السياسية والاقتصادية الموقتة، وإذا جابه المسؤولون البريطانيون العالون الجانب الأميركي بالحجة الآتية: «أنكم أسياد نصف الكرة الغربية ولا نحلم أن ننازعكم هذه السيادة، وانكم كذلك أسياد الشرق الاقصى، اليابان بالفعل ولعل الصين كذلك

بالقوة برغم الانحدار الحالي، أما نحن فبعد تقلص ظل امبراطوريتنا في آسيا لم يبق لدينا مجال للتوسع الاقتصادي إلاّ في افريقيا والشرق العربي. وهذا التوسع ضرورة حيوية لنا بينما هو، نظراً لامبراطوريتكم اللاتينية والشرق-اقصوية فضلاً عن امبراطوريتكم الخاصة في بلادكم ذاتها، ليس بنفس الضرورة لكم. لذلك نطلب منكم، باسم التقاسم العادل لمتسعات الارض ولاننا نثق انكم لا يمكن ان تنظروا بعين الرضى الى انحلالنا وزوالنا كقوة كبرى في العالم، أن تدعونا ننظم الشرق العربي ونشرف على مصيره، خصوصاً ونحن أكثر تأصلاً فيه منكم، ومصالحكم الاستراتيجية والبترولية نضمنها لكم كل الضمان». إذا استعادت بريطانيا شهيتها الامبراطورية (مع تنسيقها مع مقتضيات عصر الأمم المتحدة الحاضر) وجابهت أميركا بهذا القول بحزم مطلق ينم عن سياسة واعية أخيرة، فإني لا أستطيع أن اتصور أميركا تزاحمها في السيطرة على الشرق الادنى أو تبث العراقيل في وجه بسط نفوذها عليه.

واني اقدر انه، إذا انتظمت دول غربي أوروبا في وحدة أو شبه وحدة، وانسجمت سياساتها، بفعل «حلف غربي أوروبا» و«الحلف الاطلنطيقي»، فإن أميركا لن تصر على مناصرة اسرائيل مناصرة تامة على حساب ارادة بريطانيا ودول غربي أوروبا.

لذلك كله، فإني انظر الى بريطانيا كالدولة التي

يمكن أن تغدو عامل الاستقرار الاكبر في الشرق الادنى، وبالتالي عامل صيانة العالم العربي من النفوذ الصهيوني. ولا استبعد أن تكون بريطانيا هي اداة عتق الحكومة الاميركية من سيطرة اليهود عليها، على الاقل في ما يتعلق بالشرق الادنى. وإذا تم هذا تكون بريطانيا حامية العرب من المحو الصهيوني ومنقذة أميركا من السيطرة اليهودية.

١١. شرط استفادتنا من هذا الامكان

بيد أن كل هذه الاحتمالات، والتكهنات المستندة اليها، ليست محتمة، وإنما هي شرطية. وشرطها الأول والاخير هو انتفاض العالم العربي، واستعادته بعض ما كان له من الاحترام قبل فشله في حربه مع اليهود، واستزادته من ذلك الاحترام على النحو الذي سأعرضه في فصل قادم.

اني إذ ابسط امكانيات المساندة التي قد تقدمها بريطانيا للعالم العربي، إذن، انذر في الوقت عينه ضد الاتكال على هذه الامكانيات بحد ذاتها، واحذر من توقع حصولها حصولاً اوتوماتيكياً. ذلك اني موقن بأن هذه الامكانيات الممتازة لتناسق مصالحنا مع المصالح البريطانية في وجه المصالح اليهودية المدعومة بالعطف والمساعدة الأميركيين، متوقفة كلياً في تحقيقها على مدى القوة والوحدة التي سيبديها العالم العربي،

والتجدد الذي سيظهر في آفاق حياته.

فإذا نبضت في شرايين الحياة العربية في المستقبل القريب، والقريب جداً، دماء التجدد الاساسي، وإذا بزغت في شرقي حوض المتوسط فتوة عربية تثبت اننا جديرون بالحياة، وإذا انطلقت من اختلاجات الحياة في كياننا قوة أو بوادر قوة، نزاعة الى النور والكيان، فعندذاك نستطيع أن نأمل أن بريطانيا ستأخذ العالم العربي بالاعتبار الجدي لدن موازنتها بين قوة الفريقين، العربي واليهودي، وتقريرها أياً تحالف منهما وأياً تخاصم. عندذاك، وعندذاك فقط، تصبح الامكانيات المشار اليها آنفاً واقعة، وتتجه السياسة البريطانية نحو مساندتنا ومناصرتنا.

أما إذا تقاعس العام العربي عن هذا التجديد الثوروي الجدي، وسار بقوة الاستمرار على السبيل الاتكالية الظلامية التفككية التي ينتهجها الآن، فلا ننتظرن حتى من بريطانيا أن تقف الى جانبنا وقفة تعرضها لعداء اسرائيل، وتعرض المصالح البريطانية للخطر. لاسيما وان بريطانيا نفسها ليست خالية من النفوذ الصهيوني في أوساطها العليا، والتراث اليهودي مدموج في اس التراث المسيحي الغربي.

وفضلاً عن ذلك، فإن بريطانيا التي أعطت وعد بلفور مرة، قد تجد نفسها مرة اخرى في مآزق دولية حيوية من حيث بقاؤها، فتضطر لإطلاق حرية اليهود في الشرق الادنى، لقاء المصالح البريطانية الاخرى

التي تستطيع القوة اليهودية ضمانها حيث يعجز الضعف والتفكك العربيان عن تأمينها .

وقصارى القول أن بريطانيا حليف لنا عتيد ، وسند لنا قوي ، إذا نحن أثبتنا لها اننا اقوياء بالمادة والكيان . أما في ما عدا ذلك ، فلا نتكلن حتى على التضارب الطبيعي بين المصلحتين البريطانية واليهودية ، أن يعمل على توجيه السياسة البريطانية نحو تأييدنا .

الفصل الرابع

أميركا والعالم العربي

١٢ . وضع اليهود في أميركا

تختلف الحال في أميركا أصلاً عما هي في بريطانيا . فبقدر ما لليهود في أميركا من وضع مستقر وتأصل في جذور الحياة الأميركية ، بذلك القدر عينه لهم تأثير فعال في الرأي الأميركي ووزن متفوق في السياسة الأميركية الرسمية . ولهذا فإن أملي بأميركا ، كنصير لنا أو كقوة محايدة ، لضعيف جداً .

يقطن أميركا خمسة ملايين يهودي على أقل تعديل ، معظمهم محصور في نيويورك وبعض المدن الصناعية الكبرى كشيكاغو وكليفلاند وبوسطن وفيلادلفيا . وهم محتكرون لبعض الصناعات الرئيسية (كصناعة الألبسة مثلاً) احتكاراً يكاد أن يكون تاماً . كما وانهم محتكرون الى حد بعيد بعض الحرف المهمة (كطب الاسنان) ، ولهم تأثير كبير في عدد من المهن الاخرى (كالمحاماة) .

ولما كان تاريخ الهجرة اليهودية الى أميركا قديم العهد، فقد أتيح لهم أن يوطدوا أقدامهم في تربة الحياة الاميركية، لاسيما الاقتصادية، توطيداً ملموساً.

أما بالنسبة الى الصهيونية، فهؤلاء اليهود الاميركيون ثلاث فئات. (١) الفئة الأولى لا تؤمن بالصهيونية مطلقاً، بل تحاربها – ذلك أولاً لخشيتها من تزايد اللاسامية في أميركا بفضل انتشار الصهيونية فيها، وثانياً لخشيتها من حصول التباس في الذهنية الأميركية بين اليهودية كدين وبينها كقومية، ومن قيام شك في النفس الأميركية بإخلاص اليهودي الأميركي التام لبلاده أميركا بفضل «الولاء المزدوج» القائم في نفس كل صهيوني، ولائه للدولة التي هو أحد رعاياها وولائه للقومية اليهودية الممثلة في الدولة اليهودية (عتيدة كانت أم واقعة). وزعيم هذه الفئة هو روزنولد، رئيس «المجلس الاميركي لليهودية». (٢) والفئة الثانية هي فئة الصهيونيين المؤمنين الفاعلين الاشداء. ولهذه الفئة مؤسسات وجمعيات عدة، وعلى رأسها اشخاص معروفون مثل ستيفن وايز (المتوفى) وسلفر ونويمان. (٣) وأما الفئة الثالثة فهي الفئة الحيادية، على الاقل من حيث التعبير والفعل. ويتباين مدى الحياد في هذه الفئة، عاطفة وفعلاً، متهادياً بين تأييد الصهيونية والعطف على اسرائيل، من الجهة الواحدة، والفتور الذي يكاد أن يكون تنكراً لاسرائيل، من الجهة الثانية.

ومن الصعب جداً ابداء حكم دقيق وصحيح عن

عدد كل من هذه الفئات. بيد اني اعتقد ان كلا الفئتين الأوليين معاً يكونان اقلية بالنسبة للفئة الثالثة. هذا من حيث العدد فقط. أما من حيث الفاعلية، فإن وزن هذه الفئات لا يتناسب مع كميتها العددية. (١) فالفئة الأولى – المتنكرة للصهيونية في شعورها، والعاملة ضد الصهيونية – فعاليتها قليلة وستظل قليلة. (٢) وأما الفئة الثانية – الفئة الصهيونية النشيطة العاملة المناضلة – ففاعليتها قوية وأثرها كبير، لأن «المدى الحيوي» لنشاطها هو الفئة الثالثة (الحيادية) بوجه خاص، والشعب والحكومة الأميركيان عموماً. (٣) وأما الفئة الثالثة – المحايدة – فإنها على الرغم من حيادها تقع في الاغلب تحت وطأة الصهيونية العاملة. ولهذا الخضوع للصهيونية أسباب عديدة، ففي أية جماعة من الجماعات، لا تحتاج الحركة الاجتماعية المنظمة لأن تشمل جميع أفراد تلك الجماعة (من حيث الايمان التام بمبادئها أو المساهمة الكلية الفعالة بأعمالها ومشاريعها) بل يكفيها وجود أقلية مترابطة منظمة واضحة الاهداف مخططة للبرامج نشيطة الفعل، لتسيطر على الاكثرية المحايدة وتحفزها للعمل، ولو جزئياً، وفق برامجها هي، أو لتغريها في المساهمة الى حد ما في أعمالها. ويتم هذا بشكل خاص إذا كانت هذه الفئة العاملة المناضلة نشيطة متفانية «مهاجمة»، وكانت الفئة المناوئة، رغم ايمانها بقضيتها، غير كاملة النشاط والتفاني، فكان نضالها بالتالي سلبياً غير

مهاجم، وإذا كانت الفئة الاولى، أيضاً، ذات برامج ايجابية معينة تستطيع أن تقدمها للاكثرية المحايدة، وذات خطط منظمة دقيقة تستطيع أن تعرضها على الكثرة الفاترة اقساطاً واجزاء، بينما الفئة الثانية تعجز عن تقديم أهداف واضحة حافزة للنضال، أو خطط عملية تغري بالمساهمة. وهذه هي الحال بالضبط في الفئتين اليهوديتين المشار اليهما. وفضلاً عن ذلك كله، فإن نقل الفئة المحايدة من حالة الحياد الى حالة المناصرة فالفعل، لا يقتضي بالضرورة اقناع كل فرد من افرادها بالايمان الكلي بمبادئ الصهيونية، أو بالانتقال الى اسرائيل والسكن فيها، بل يكفي قادة الصهيونيين أن يتبرع أفراد هذه الأكثرية المحايدة بالمال، أو أن يقوموا ببعض الضغط السياسي اثناء الازمات - كتوقيع رسالة أو برقية، أو الاقتراع لمرشح معين، أو الاشتراك بتظاهرة. لهذه الاسباب جميعاً أرى أن الاكثرية اليهودية في أميركا، ولئن لم تكن كلها صهيونية بالمعنى الكامل للكلمة، فهي حتماً واقعة تحت وطأة الفئة الصهيونية، منفذة لإرادتها. ومن هذا اخلص الى الحكم بأن اكثرية يهود أميركا، من حيث الفعل، هم صهيونيون، وليس من أساس أو تبرير لأي أمل بأن قسماً كبيراً من يهود أميركا سيكون ذا وزن لا صهيوني أو ضد الصهيونية.

وقد ازدادت كفة الصهيونية في اوساط أميركا اليهودية رجوحاً بعد قيام اسرائيل، وبات الكثيرون من المترددين بالأمس ميالين الى مساندة الصهيونية. فمن

محايدي الأمس فريق انقلب مسانداً للصهيونية انتصاراً لبني جنسه المهاجمين عسكرياً والمدافعين عن بقائهم، ومنهم فريق تحول من الحياد الى التأييد بفعل نشوة الظفر والانتصار الصهيوني في اسرائيل، ومنهم فريق كبير بات يرى امكانيات استثمارية صناعية واسعة في اسرائيل، ومجالاً لاستثمار رأسماله فيها وفي أسواقها العتيدة، فبات بالتالي يؤيدها ويرى في قيامها خيراً له ومصلحة. وإذا قلت أن هذا الفريق الأخير اصبح يرى في وجود اسرائيل مجالاً واسعاً لاستثمار أمواله، فلست أقصد بذاك أن اسرائيل نفسها ستكون هي «المدى الحيوي» لمطامح هذا الفريق، بل اقصد ان اسرائيل ستكون نقطة الاستقرار فالانطلاق الاقتصادي، وأسواق العالم العربي ستكون هي مداه الحيوي. أي أن الاموال اليهودية الأميركية ستستثمر في اسرائيل، أما بإشادة منشآت اقتصادية أو بتأسيس فروع للمنشآت الاقتصادية القائمة هنا، بينما توزيع واستهلاك المصنوعات المصدرة اليها أو المنتجة فيها سيتم في العالم العربي نفسه. إذ إنه من الواضح أن اسرائيل نفسها لا تكون سوقاً واسعاً يروي ظمأ هؤلاء الرأسماليين البعيدي النظر، لكنها تكفي لتكون نقطة تجمع للنشاطات وواسطة توزيع للمنتوجات. في حين أن العالم العربي - خصوصاً كما يصوره الصهيونيون لرأسماليي أميركا - هو عالم متسع، متأخر، فيه امكانيات كبيرة للاستهلاك وامكانيات ضئيلة للانتاج،

وهو بالتالي تربة خصبة وسوق خام للرساميل الأميركية التي ستستثمر في اسرائيل، ومدى رحب لتوسع الرأسمالية اليهودية الأميركية الطموحة الوثابة. وهذا كله، بالطبع، يتوقف على توطيد اقدام الصهيونية في اسرائيل وانتشار سيطرتها على العالم العربي - ويتطلب بالتالي مساهمة الرأسماليين اليهود في احداث التوطيد والسيطرة عينهما.

١٣. وزن اليهود في أميركا

هذا التحليل لوضع اليهود في أميركا، وسيطرة الصهيونية على السواد الاعظم منهم، يحضرنا لتفهم وتقدير العناصر التالية التي تؤلف بمجموعها وتضافرها فعالية اليهود في التأثير على السياسة الأميركية وقدرتهم على توجيهها.

أولاً: يستطيع اليهود أن يلعبوا بالشعور الأميركي من حيث التوراة والتراث الروحي العبري المسيحي. ففلسطين تتمتع في الذهنية الاميركية بمعنى عقائدي صرف. انها تعني المسيح والتراث العبري النبوي، وهذان في الكيان الغربي الحي ليسا بالشيء الممكن غض النظر عنه. فكثير من الاميركيين يعتقد ان نبوات العهد القديم بالنسبة لليهود ولرجوعهم الى فلسطين محتمة الوقوع وان من يساهم في تحقيقها يرضى عنه الله. فلا يمكن بحال من الاحوال المبالغة في خطورة

اقتران التوراة باليهود في العقلية الاميركية البروتسطنتية بالنسبة الى فلسطين، تاريخاً ومصيراً. وكل تحليل للقضية الفلسطينية يحصر نظرته في اعتبار «المصلحة» و«الدس» اليهودي العالمي والاستعمار الغربي وحسب، ولا يرى (اما لانه لا يرى بالفعل او لانه يرى ويتعامى عما يرى في آن واحد) جذور المسألة في التأصل الروحي لليهود في الغرب، كل تحليل من هذا القبيل لا قيمة البتة له في نظر الحق. اليهود، شعباً وتراثاً وآلاماً، جزء حي من الوجود الغربي، وعلاقتهم بفلسطين لم تنقطع، ولذلك، ففوق كل اعتبار مصلحي سياسي، محتم على الغرب، بطبيعة علاقتهم الحميمة معه، ان يقف بجانبهم اذا هم طالبوا بفلسطين واذا اتيحت لهم فرصة الاستيلاء عليها، اي اذا لم يجدوا أمامهم قوة كافية لدفعهم عن هذا الاستيلاء. هذا شيء كان في طيات الوجود منذ عشرات السنين، بل منذ قرون، وما يكمن بوضوح في طيات الوجود يستطيع العقل الحر النير الصافي المحب ان يراه كذلك بوضوح، ومع ذلك فسياسيونا ومفكرونا لم يفطنوا اليه، ظناً منهم ان «المصلحة» و«السياسة» فقط تقرران الامر، وان قوى «العروبة» و«القومية» كافية وحدها لتعطيل مفعول الروحية اليهودية والمتغلغلة في صميم التراث الغربي المسيحي المتراكم.

ثانياً: بالاضافة الى الاثر الروحي هذا، ثمة أثر عقلي ثقافي متأت عن تغلغل اليهود فكرياً في اميركا.

ففي اميركا جحافل من العلماء اليهود، الألمان والأوروبيين عموماً، الذين نزحوا من أوروبا بعد اضطهادات النازية وبعد الحرب الاخيرة، وتوزعوا اساتذة في الجامعات وخبراء في المؤسسات العلمية والمختبرات. واليهود كثر واقوياء في صفوف العلماء الفيزيقيين والبيولوجيين. ويكفي ان نذكر منهم في هذه الحقول اينشتاين (ذا المكانة العالمية الممتازة) وأوبنهيمر (ملك القنبلة الذرية). وفي اميركا ايضا عدد من الكتاب والمؤلفين اليهود لهم وزنهم في الاوساط الادبية والفكرية. وان الكسموبوليتانية الفكرية المتفشية في اميركا هي نزعة يهودية. وفي حقل الفكر السياسي يوجد عدد كبير من الموجهين الفكريين والمعلقين السياسيين - من امثال ولتر لبمان - الذين تقرأ كتاباتهم ويصغى الى تفسيراتهم وتكهناتهم وآرائهم بعناية. وفي الأوساط الفنية، لاسيما الموسيقية، يتمتع الفنانون اليهود بمكانة رفيعة.

ثالثاً: وثمة أيضاً الاثر السياسي الاداري، يتمثل في العدد الكبير من اليهود المحتلين أعلى المناصب الحكومية، في اجهزة الادارة وفي المجلس التشريعي وفي المحكمة العليا، والذين يستطيعون الضغط على الادارة الحكومية وتوجيه السياسة الاميركية. وعلى سبيل التمثيل، لا على سبيل الحصر، نذكر فرانكفورتر عضو المحكمة العليا (وهو ذاته الذي كتب اليه فيصل كتابه المشهور عام ١٩١٩ من باريس)، وبرانديز

(العضو السابق في المحكمة العليا)، ومورغنطاو (الذي كان وزيراً للمالية في عهد روزفلت، وهو اليوم رئيس الحملة المالية لإغاثة اليهود – United Jewish Appeal المعتزمة ان تجمع ٢٥٠ مليون دولار من اميركا في السنة الحالية)، وسول بلوم (الذي كان قبل وفاته رئيساً للجنة الشؤون الخارجية في المجلس التمثيلي الاميركي اثناء كل التطورات التي حصلت في السنتين الماضيتين، كما تحمل مسؤوليات اخرى، لاسيما في مؤتمر سان فرنسيسكو، فيها مجال واسع لتوجيه دفة السياسة الاميركية في ما يتعلق بفلسطين)، وليلينطال (رئيس لجنة الطاقة الذرية)، فضلا عن مستشاري ترومن لاسيما في الشؤون الاقتصادية. وثمة مجال واسع لإجراء بحث علمي دقيق ودرس الشخصيات اليهودية البارزة ذات المسؤوليات الرفيعة في الحكومة الاميركية، لا يسعني الولوج في تفاصيله في هذا التقرير.

رابعاً: والنفوذ اليهودي البعيد المدى في الحقل الاقتصادي والمالي في اميركا هو عنصر آخر ذو شأن يعمل على توجيه السياسة الاميركية الوجهة الملائمة لمصالح الصهيونيين.

وكثيرون من كبراء الرأسماليين اليهود في اميركا لهم نفوذ يندر مثيله في الاوساط الرسمية الاميركية، مثل برنارد باروخ الصهيوني، الذي كان يد روزفلت اليمنى في تعبئة الصناعة الاميركية للحرب، والذي هو، بفضل

نفوذه الاقتصادي، سياسي بالغ الاهمية، حتى انه يلقب في الصحف الاميركية بالسياسي الاكبر (The Elder States man) وبمستشار رؤساء الجمهورية (The Advisor of Presidents) وهو من اكبر اصدقاء تشرشل.

واذا ذكرنا اثر الاوساط المالية في تقرير سياسة دولة ديموقراطية رأسمالية كأميركا، وذكرنا في الوقت عينه كثافة اليهود في نيويورك عاصمة الاقتصاديات الاميركية وفي المدن الصناعية والتجارية الكبرى، اتضح لنا مغزى هذا العنصر وقدره البعيد. ان اسرائيل نفسها هي الى حد بعيد وليدة الاقتصاديات اليهودية المسيطرة على نيويورك، وبالتالي على الاقتصاديات فالسياسة الاميركيتين. انها - اي اسرائيل - غزوة نيويوركية الى الشرق الادنى، وامتداد الصناعة والتجارة اليهودية النيويوركية الى اسواق العالم العربي، وتوسع الاخطبوط الرأسمالي من نيويورك اليهودية الى شاطئ البحر المتوسط الشرقي.

وان اثر الجو الصهيوني الاقتصادي في نيويورك على السياسة العامة الاميركية ليبدو جلياً كل يوم في مجاراة رجال السياسة الاميركيين لرغبات ومصالح الصهيونيين. وعلى سبيل التمثيل اذكر حادثاً جرى مؤخراً، عندما انتخب ابن الرئيس روزفلت في المجلس التمثيلي بفضل الدعم الصهيوني الى حد بعيد، فكان أول عمل قام به، قبل ان يمارس صلاحياته ويضطلع بمسؤولياته كنائب، ان قام برحلة الى اسرائيل

ابدى فيها اعجابه «بالدولة الفتية الناهضة» وعبر عن تأييده للحركة الصهيونية.

خامساً: يسيطر اليهود في اميركا على كافة حقول الدعاوة - كالصحافة ومحطات الراديو والسينما ووكالات الانباء - سيطرة تكاد تكون تامة. ولذلك فإن اداء الاخبار وطرق عرضها والتعليق عليها وكافة الاساليب الاخرى لاقناع الرأي العام، خاضعة خضوعاً تاماً للسياسات التوجيهية الصهيونية وللمصالح اليهودية الجائمة وراءها. وكل يوم نلمس دليلاً جديداً على هذا النفوذ، ومظهراً جديداً له، ووسيلة جديدة يستعملها الصهيونيون. فمن محاربة معلق الراديو ولتر ونشل للسيد غريفيس (السفير الاميركي السابق في مصر، الذي انتصر للعرب كسفير، ثم تولى أعمال الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين) ونشره او اختلاقه الفضائح تعمداً للحط من كرامته، الى حملات درو بيرسون، المعلق الصحفي، على وزير الحربية السابق فورستال، وتهجماته عليه، واختلاقه وترويجه اخباراً محطة بكرامته وسمعته، يقال انها كان لها اثر في انتحاره، الى المبالغة في اخبار التلاعب الذي يقال انه حدث في ملايين الدولارات من مخصصات اغاثة اللاجئين، وتضخيم هذه الانباء والاستمرار في ترويجها رغم التكذيبات الرسمية والايضاحات الصادرة عن المراجع المسؤولة - من هذه الظواهر الحديثة العهد، ومن الكثير سواها، نلمس مدى الاثر الاذاعي الصهيوني في

اميركا ونقدره كما هو .

واني واثق انه لو جرى بحث علمي موضوعي هادئ لكيفية معالجة الصحافة الاميركية للقضية الفلسطينية ، لأظهر هذا البحث العجائب . وقد حدثني ملحق صحافي هندي مرة انه قام بإجراء مثل هذا الدرس بشكل اولي تمهيدي ، فاكتشف ان حجم ما تكتبه الصحف الاميركية عن فلسطين يفوق حجم ما تكتبه هذه الصحف نفسها عن اية دولة اخرى (عدا الولايات المتحدة نفسها) دون استثناء انكلترا وروسيا .

سادساً : ويستطيع اليهود ان ينقروا – بما لهم من وسائل اذاعية – على اوتار العطف الشعبي الاميركي ، بواسطة استغلالهم لاضطهادات هتلر السابقة ليهود المانيا . وقد بلغ من تأثير دعاواتهم ان باتت كلمة «لاسامية» في طليعة الكلمات المحقرة والسيئة الى مكانة من تطلق عليه ، ومن اسهل التعابير استعمالاً واوفرها نجاحاً في تلطيخ سمعة اعداء اليهود ، دون تمييز او اثبات . وحديثاً جداً مانع اليهود في عرض فيلم محوره الرواية الانكليزية الكلاسيكية Oliver Twist ناعتينه باللاسامية ، لمجرد ان احد اشخاص الرواية ، وهو يهودي ، قد صور ببعض التهكم . وها هم اليوم – كما سبق لي التنويه – يتحدثون عن اضطهاد الشيوعية الروسية لهم . وبديهي ان مثل هذه المزاعم الاخيرة لها اثر بعيد في نفوس الاميركيين ، لاسيما بالنظر الى التوتر القائم حالياً بين اميركا وروسيا الشيوعية . فإذا ادخلوا

في روع الاميركيين ان الصهيونية مضطهدة في مناطق النفوذ الروسي تمكنوا بذلك من ادراك هدفين في آن واحد : فمن جهة يثيرون العطف الاميركي البريء على المضطهدين ويحمسون فوق هذا العطف العام ، اليهود الاميركيين لنصرة ابناء جنسهم ودينهم ، ومن جهة اخرى يحملون الاميركيين على الجنوح الى الاعتقاد بأن الصهيونيين ، بما انهم مضطهدون في الاتحاد السوفياتي ، فلذلك هم اصدقاء الديموقراطية الغربية ، او على الاقل ليسوا بأصدقاء الشيوعيين ، خلافاً لما اشيع عنهم لاسيما بعد تأييد السوفيات لدولة اسرائيل .

سابعاً : وثمة عامل آخر قد يصح اعتباره الواسطة الرسمية الكبرى التي من ضمنها تفعل العوامل السابقة كلها وتعبر عن نفسها بشكل حكومي رسمي ، اقصد بذلك الجهاز الدستوري في الولايات المتحدة .

ويتضافر في ايجاد هذا العامل واقعان : اولهما ، ان كيفية انتخاب رئيس الجمهورية في الولايات المتحدة تتيح للاقلية الواعية المنظمة في الولاية الاكثف سكاناً ان يكون لها وزن في الانتخاب اثقل بكثير من نسبتها العددية بل ان تقرر الى حد بعيد مجرى الانتخاب بكامله ، والثاني ، ان الدستور يحصر العدد الكبير من السلطات الاخيرة ، ومنها سلطة تقرير وتنفيذ السياسة الخارجية ، بيد رئيس الجمهورية . ومن تضافر هذين الواقعين ، ينتج ان يهود نيويورك يتمتعون بالقدرة على تقرير مجرى انتخابات الرئاسة وتعيين المرشح الفائز

الى حد بعيد مما يجعل رئيس الجمهورية مديناً لهذه الفئة بالذات في كونه رئيساً اكثر من اية فئة اخرى، ويرغمه على استرضائها واكتساب تأييدها لضمان اعادة انتخابه وبقائه رئيساً. ولما كانت سياسة اميركا الخارجية يعينها وينفذها رئيس الجمهورية، كان من الطبيعي ان تتأثر هذه السياسة في ما يتعلق بفلسطين على الاقل، بارادة اليهود، على الرغم من توصيات خبراء وزارة الخارجية ومستشاريها، او توصيات وزارة الحربية، التي كانت في ظروف دقيقة عديدة، على طرفي نقيض مع سياسة الرئيس وميوله.

لعل هذا التضافر بين الميكانيزم الانتخابي لرئيس الجمهورية وبين سلطات رئيس الجمهورية، على النحو الذي ذكرنا، هو اكبر خطر واجهناه ونواجهه، ولعله هو الذي خسّرنا فلسطين. فبمقدار ما كان مصير فلسطين نتيجة السياسة الاميركية والنفوذ الاميركي في الامم المتحدة، بذلك المقدار عينه كان نتيجة لكيفية انتخاب رئيس الجمهورية الذي هو مصدر تعيين السياسة الخارجية الاميركية الاخير.

ومن المستطاع القيام بدراسة وصفية تحليلية لأساليب ونظم انتخابات الرئاسة في الولايات المتحدة، وما يسبقها ويرافقها من اجراءات، وما تعطيه من وزن انتخابي ليهود اميركا، الذين هم من حيث العدد الاخير اقلية ضئيلة بالنسبة لمجموع سكان هذه الدولة (بنسبة ٣ بالمائة)، ولكنهم بفضل الميكانيزم

الانتخابي يسيرون دفّة الانتخاب في ولاية نيويورك، التي بدورها ترجّح كفّة الانتخاب في الولايات المتحدة عموماً. بيد ان مثل هذه الدراسة الوصيفة خارجة عن نطاق التقرير الحالي، فأكتفي هنا بالاشارة الى هذا الواقع دون الولوج في تفاصيله.

ثامناً: ان القوة التي اظهرتها اسرائيل في حربها الاخيرة مع الدول العربية، والتفوق الذي ابدته عسكرياً، زادا كثيراً في وزن اليهود في اميركا، وكانا كافيين لاسكات السياسيين والستراتيجيين الاميركيين الذين كانوا قبل حرب عام ١٩٤٨ يرون من الحكمة ومن مصلحة بلادهم ان لا تتعرض اميركا لاغضاب دول الجامعة العربية (ومن ابرز هؤلاء فورستال، وزير الحربية السابق، الذي ألمحت في ما مر الى مخاصمة الصهيونيين له لاعتبارهم اياه مذكراً بضرورة اخذ اميركا وزن المركز العربي الستراتيجي بعين الاعتبار). فلو ان نتيجة الحرب العربية الصهيونية كانت عكس ما كانت، لكان فعل كل العوامل السبعة السابقة اقل مما اصبح بعد ان اضيف اليه اقتناع الاميركيين بقوة اسرائيل وتفوقها على العرب.

١٤. وضع العرب في اميركا

اذا قورن وضع العرب في اميركا بوضع اليهود، بدا بعد الشقة بين الوضعين جلياً. فعدد العرب في اميركا

اقل بكثير من عدد اليهود (يراوح بين المائة والمائتي الف)، وهم موزعون في الولايات المختلفة بنسب لا تؤلف كثافة ملموسة في اية ولاية ذات شأن. كما وأنهم، في الاشغال التي يتعاطونها، لا يسيطرون سيطرة احتكارية على اية ناحية من نواحي الحياة الاميركية، ولا يكونون عنصراً رئيسياً في اية حرفة او مهنة. وبعكس الهجرة اليهودية، ان تاريخ الهجرة العربية حديث العهد نسبياً، وتأصل المهاجرين العرب في تربة الحياة الاميركية لا يبلغ قط درجة تأصل اليهود.

وفضلاً عن اوجه المقارنة الثانوية هذه، هناك فروق اساسية بين وضع الفئتين الشعبيتين. فإن المهاجرين العرب المقيمين في اميركا لا يشكلون فئة شعبية قائمة بنفسها، الا من حيث اصلهم وبعض عاداتهم (وهذا الاستدراك نفسه يصح بالنسبة الى الجيل الاول من المهاجرين، لا بالنسبة الى ابنائهم واحفادهم). ولا يسيطر عليهم الا بصورة عرضية ثانوية، وعي لمزاياهم القومية، او شعور بانتسابهم الى البلدان العربية التي جاؤوا منها، او اعتزاز قومي قط. ولا تجمعهم على العموم رابطة او وحدة، فلا يقومون بالتالي بالاعمال المشتركة ولا ينظمون لها الخطط. بل يمكن، على العكس، ان يحمل وضعهم النفسي القومي بالقول انهم، على العموم، لا يبالون بما يجري في اوطانهم الا قليلاً، فلا يندفعون اندفاعاً فعالاً منظماً لنصرتها في حيف، ولا يتأثرون تأثراً عميقاً اصيلاً اذا بلغهم نبأ تقدم

فيها أو رقي. وأنهم الى حد بعيد يستحون بأصلهم وبانتسابهم في ما سبق الى أوطانهم، فيسعون الى اخفاء أصلهم، حتى ولو أضطرهم ذلك الى تغيير اسمائهم واعطائها مسحة اميركية. وباختصار، ان العرب القاطنين في اميركا والمستقرين فيها فاقدون، على العموم، اهم مظاهر الوعي والتضامن والاعتزاز القومية. فهم اذن، كمجموع عربي، او كمجاميع عربية، كأنهم غير موجودين في اميركا على الاطلاق: او انهم، بكلمة اخرى، موجودون كأفراد، وكبشر، لكن لا كمتحدرين من أصل عربي او كنازحين من بلدان عربية.

ولم يبرز في الجاليات العربية، في اي حقل من حقول الحياة، من يطبع في الذهنية الاميركية اثراً ايجابياً، ان بالنسبة لقيمته ومآثره الشخصية، او بالنسبة لشعبه ومآثر شعبه، سوى القلائل. ولا شك في ان جبران هو اكثر من عرفه الاميركيون وقدروه من مهاجرينا. وقد كان للعلاّمة الدكتور فيليب حتي اليد الطولى في تعريف بعض الاوساط الاميركية بالتاريخ والتراث العربيين.

اذن، فوضع العرب في اميركا ليس بالوضع الذي يعطي للمصالح والارادات العربية كبير وزن في الاوساط الاميركية، شعبية كانت ام حكومية. ووزن العرب في اميركا، كائناً ما كان، ليس بالوزن المتأتي عن وضع العرب المقيمين هنا. وهذه الحقيقة بحد

ذاتها بعيدة المغزى، اذ انها تشير الى مميز اساسي بين مصدر الوزن اليهودي ومصدر الوزن العربي في اميركا: فالاول قائم في اميركا، فاعل في صميم الذهنية الاميركية، حي في المؤسسات الاميركية، ويشكل جزءاً من الكيان الاميركي نفسه، بينما الثاني قائم خارج اميركا، ويفعل فعله الضئيل كقوة خارجة عن الكيان الاميركي. ومهما يكن من أمر هذا الفرق الاساسي، فان العناصر المؤلفة لكل من الوزنين هي بحد ذاتها في تباين نوعيّ وكمي، كما سيتضح مما يلي.

١٥ . وزن العرب في اميركا

قلت ان وزن العرب في اميركا، مهما كان مقداره او نوعه، ليس متأتياً عن وضع العرب في اميركا، بل عن الواقع العربي في العالم العربي نفسه. وعلى كل حال، فهذا الوزن، بحد ذاته كما وبالقياس الى وزن اليهود، قليل وقليل جداً. فلو قارنا عناصر الوزن اليهودي، كما حللناها في ما مر، بعناصر الوزن العربي، لاتضح لنا من الجهة الواحدة، ان الاولى تفعل ضمن الكيان الاميركي بينما الثانية تفعل خارجه، ومن الجهة الثانية ان الاولى ذات اثر ملموس في العقلية الاميركية بينما الثانية ضئيلة الاثر.

فبإزاء تغلغل اليهود في اميركا، فكرياً وادارياً واقتصادياً واذاعياً، ودغدغة آلامهم لعواطف

الاميركيين، وضغطهم على رئاسة الجمهورية - هذه العوامل الناجمة كلها عن وضعهم في اميركا نفسها - لا نجد للعرب اي ثقل مواز في أي من هذه الحقول، نظراً لما وصفناه من وضعهم هنا.

وبإزاء القوة التي ابداها اليهود في حربهم مع العرب ففرضوا بواسطتها على العقلية الاميركية احترام نشاطهم وتقدير تنظيمهم وتفانيهم والاعجاب بهم - بإزاء هذه، لم تطبع انكسارات العرب وما جرته من ذيول في العالم العربي على العقلية الاميركية سوى صورة التأخر والتفكك ونفعية المسؤولين وجهل الشعوب.

وبإزاء التراث العبري النبوي، الحي في الادب والعقلية والتراث المسيحية، الفاعل في ضمائر الغربيين، لا يتمتع العرب على الاطلاق بتراث مواز يضارعه تأثيراً في الغرب. فبقدر تغلغل اليهود روحياً وعقلياً في التراث الغربي، بذلك القدر عينه نجد العرب مقصيين عن الروح الغربية، قائمين خارج التراث الغربي، مختفين عن العقلية الغربية او ذوي قيمة سلبية فيها. نعم، ان للعرب تراثاً حضارياً ومآثر تاريخية. بيد ان المهم في الامر، من وجهة النظر التي نحللها الآن، هو في الدرجة الاولى مدى وعي الاميركيين لهذا التراث، ومدى ادراكهم لكونهم مدينين له او مدينين للعرب به، اي مدى بقاء هذه المآثر حية في التراث الغربي ومقترنة بالعرب في ضمير الاميركيين. وفضلاً عن هذا فهم ايضاً ان التراث العربي يمس الحياة

الاميركية والكيان الاميركي ونظرة الاميركيين الى الحياة والقيم والدين، بينما التراث العربي، وما دخل منه في صلب التراث الغربي بصورة خاصة كالرياضيات والفلك والطب، والمساهمة في نقل التراث اليوناني الى اللغات الغربية، لا يمس الحياة والكيان الاميركيين، بل يمس وحسب ادوات الحياة. لهذين السببين نجد تراث العرب ومآثرهم ضئيلة الفعل باهتة اللون في الوجدان الاميركي، ونجد ان العرب على الرغم مما قدموه للحضارة الغربية ينظر اليهم كشعب خارج عن الروح الغربية، غريب عن الكيان الاميركي وناء عنه. يجب الا ننسى قط ان اليهود غربيون بينما العرب ليسوا بغربيين.

بقي هناك عاملان آخران لهما بعض الوزن في أميركا:

اولهما، مصالح اميركا الاقتصادية في الشرق الادنى، التي على اميركا ان تخطب ود العرب لتأمينها. بيد ان هذه المصالح، لاسيما الزيت، قد امنتها اميركا، وتستطيع ان تعتبرها مضمونة وثابتة على الرغم من موقفها المناصر لاسرائيل. وهذا بالفعل ما حصل وما هو حاصل. فان علاقات اميركا الاقتصادية والزيتية بالعالم العربي لم تتأثر تأثراً ضاراً باميركا حتى في اوج المحنة وفي ذروة تأييد اميركا للصهيونية وتنكرها للعرب.

وثانيهما، المصالح الستراتيجية الاميركية في الشرق

الادنى. ولكن هذه ليست كافية لقلب التوازن بين العرب واليهود، لعدة اسباب: (١) لان هذه المصالح الستراتيجية هي، في الظرف الحالي وفي المستقبل القريب، محصورة في مصلحة رئيسية واحدة - مصلحة الحؤول دون توسع روسيا، وتأمين موطئ قدم للحلفاء الغربيين في الصراع المتوقع مع روسيا. وهذه المصلحة مؤمنة جزئياً في ولاء تركيا لأميركا، وفي سوى تركيا من الدول الشرق ادنوية، مثل ايران واسرائيل. وهي مؤمنة ايضاً في العالم العربي نفسه بواسطة الامتيازات البريطانية في بعض الدول العربية.

وهذا النزر من الضمانات كاف لتأمين المصالح الاميركية-الغربية الستراتيجية في حالة نشوب حرب مع روسيا. و(٢) لان اميركا في حسبانها تفترض ان العالم العربي لن ينحاز الى الجبهة الروسية في حال الصراع المتوقع، وذلك اولاً لأن الشيوعية لم تلق في العالم العربي نجاحاً كبيراً، وثانياً لأن روسيا نفسها لم تقف من العالم العربي في صراعه مع اليهود موقفاً ودياً. و(٣) لأن دول الجامعة العربية لم تظهر - في المحك الاول لقوتها العسكرية - قوية أو متحدة أو ذات شأن يحسب حسابه.

ان فشل العرب المخزي في حربهم مع اسرائيل قد أعلن ما كان مستتراً من ضعفهم وتفككهم. وليس اليوم في العالم العربي ما هو مجهول لدى الغرب أو مخفي عن أعين مراقبيه: والعالم العربي بات معروفاً في ضعفه

وعجزه وبلبلته وتفسخ صفوفه . ان ضعف العرب هذا ، الذي اثبته بما لا يقبل الدحض فشلهم في فلسطين ، لا بد من تقدير مغزاه حق قدره لدى قياسنا لوزننا في الاوساط الاجنبية ، لاسيما الاميركية .

لهذه الاسباب كلها ، ليست المصالح الستراتيجية الاميركية في العالم العربي بذات وزن كبير في تقرير اتجاه السياسة الاميركية .

ان وزن العرب في الميزان السياسي المقرر المصائر لضعيف جداً . وان اكبر خطر وخطأ يقع فيهما العرب هو ان يغتروا كثيراً بقيمة موقعهم الستراتيجي ومواردهم الاقتصادية (والزيت على الخصوص) في انقاذهم من كل خطر ، وان يتوهموا ان بوسعهم المساومة مع الغرب ضد اليهود استناداً الى هاتين القوتين المتوافرتين لديهم واليهما فقط . اذ انه من السهل التغلب على العوامل الستراتيجية والاقتصادية ، كما أشرنا ، وكما حصل ، وكما هو واضح في الوضع العالمي الجديد ، ليس الموقع والموارد الطبيعيان بالسلاح الذي لا يقهر . ومن بلايا العرب الكبرى انهم يقيمون مثل هذه العوامل اللاانسانية بأكثر من قيمتها الاخيرة ، ويتكلون عليها أكثر مما يجب ، ويعتقدون بقدرتها بحد ذاتها على تخليصهم وانقاذهم . ومن اخطائهم السياسية انهم يحسبون ان حياة الغرب متوقفة على كسبه لرضاهم وتأمين مصالحه عندهم ، بينما الحقيقة هي ان الغرب ليس بالجازع القلق على مصيره او المهدد بالفناء ان لم يكسب رضى

العرب . وعلى المسؤولين في العالم العربي ان يدركوا هذه الحقيقة بوضوح .

ومع ان وزن العرب الدولي التاريخي ضئيل ، فإنه يمكن للعرب ان يتمتعوا بوزن كبير في السياسة العالمية ، ان هم انتهجوا سبل العمل القويمة التي سأعرض الى بعض نواحيها باقتضاب في الفصل القادم . ومحور هذه السبل كلها هو انتقال اتكالية العرب من ان تكون على العوامل اللاانسانية ، الى ان تصبح على العوامل الانسانية القائمة فيهم . فعندما يصبح العربي يزهو لا بزيوته المختزنة تحت رماله والتي لا فضل له في وجودها هناك ، ولا بموقعه الجغرافي الذي أيضاً لا فضل له فيه ، بل عندما يصبح العربي قادراً على الزهو بثقافته وكيانه وانسانيته العربية ، وعندما تصبح هذه معلمة للغرب ، عندئذ يصبح للعرب وزن في العالم . وبكلمة اخرى : عندما يخرج من الشعوب العربية نفر ، ولو كان ضئيلاً ، من الخبراء الذين تضطر الحكومات الغربية ان تستشيرهم في شؤون القنبلة الذرية مثلاً (واليهود ، الذين لا يستطيعون التبجح بثروات زيتية طائلة ، يستطيعون ان يتبجحوا بمثل هؤلاء الخبراء) ، او عندما يخرج من صفوفنا واحد فقد يدرس أقواله أطفال غلاسكو وشيكاغو وسدني وهلسنكي (واليهود ولئن لم يكن لهم وطن مترامي الاطراف ستراتيجي الموقع ، لديهم المئات من مثل هذا) - بل عندما يتجه العرب نحو حصول هذا - عندئذ يصير لهم وزن بالغ في أميركا وفي الغرب .

١٦ . الخلق الاميركي في جوهره سليم طيب نبيل

بيد انه لا بد لي هنا، ايضاحا للحقيقة وانصافاً، من أن أسجل استدراكاً هاماً جداً. وهو انني، في كل ما قلته عن تأييد اميركا للصهيونية، تأييدا يبلغ حد التنكر للعرب، انما اقصد بالدرجة الاولى الحكومة الاميركية واوساطها الرسمية. اي اني اود ان اميز بين حكمي على العقلية الرسمية الاميركية، الخاضعة للنفوذ اليهودي، وبين تقديري الخلق الاميركي الشعبي الفردي، الذي ما يزال يمتاز بمحبة السلام، والعدل، واحترام الفرد، واحترام الغير.

لا يتعدى عدد اليهود الثلاثة بالمائة من شعب أميركا، وتأثيرهم في الاكثر قائم في المدن الصناعية والشواطئ الشرقية. اما الاكثرية الساحقة المتبقية من سكان اميركا، وخصوصاً سكان اريافها ومدنها الصغيرة، فسليمون طاهرون، لا يضمرون حقداً ولا يبطنون بغضاء، مسالمون في طبيعتهم، يتحمسون لمساعدة الغير ونصرة المظلوم بكل براءة وكل صدق، يشتغلون ويحبون الشغل ويحترمون الشغل والانتاج، ويقدمون الفردية الذاتية في حريتها وعملها، وتفعل في حياتهم القيم المسيحية من حب ومساعدة وعضد وشفقة وتحنن وغفران. هذا الخضم الزاخر من البشرية الاميركية لا يمسه حكمي على الحكومة الاميركية بشكل على الاطلاق. وأكون ظلامياً ان لم أر القيم

الايجابية في هذا المجموع البشري بحد ذاتها.

اني متأكد من نبل الخلق الاميركي الشعبي وبراءته.

واني متأكد من أن الشعب الاميركي اذا ما ناصر الصهيونية فهو على العموم يفعل ذلك عن اعتقاد بريء بعدالة مطاليبها وسلامة قضيتها، لا عن نفعية او مصلحية. واني لا استبعد ان تثبت هذه القيم الخلقية الشعبية الاميركية وجودها يوماً من الايام، اذا أتيح لها ان تبصر الحق صافياً سليماً من تشويه الدعاية اليهودية، فتعوض اذذاك بعض التعويض عن الاخطاء التي ارتكبها رؤساء اميركا وسياسيوها. بيد ان هذا يتوقف على حدوث اصلاحات ملموسة والقيام بخطوات تقدمية ملحوظة في العالم العربي، وحصول تجدد في العقلية والروح العربيين والحياة الاجتماعية العربية. واني لا أستبعد أيضاً ان يحصل رد فعل في أوساط الشعب الاميركي ضد السيطرة اليهودية على مقدراته، اذا استمر الصهيونيون في بسط سيطرتهم فوق حدود الصبر والاحتمال الاميركيين. وقد يحدث رد الفعل هذا عند حلول ازمة اقتصادية كبرى في اميركا. وهناك بعض العلائم والدلائل على ابتداء حدوث تنبه لدى الشعب الاميركي الى سيطرة اليهود عليه، بعد قيام اسرائيل. الا اني لا اريد ان اعلق كبير أمل على بوادر هذا التنبه.

ومهما يكن من أمر فلا اعتقد انه يمكن بطبيعة الحال لثلاثة بالمائة من سكان اميركا ان يستمروا في سيطرتهم على هذا الخضم الزاخر من الشعب الاميركي المحب

المسالم المضحي النبيل البسيط، وان يستمروا في توجيهه وتسيير حكومته نحو معاداة العرب والحاق الضرر بهم، دون تنبه الشعب الاميركي يوماً من الايام وقيامه برد فعل. وأريد ان اضيف أيضاً اني ارى في نبل الخلق الاميركي حليفاً لنا ممكناً، ونصيراً لنا بالقوة قد يتحول الى نصير بالفعل، على الرغم مما يبدو من الاوساط الحكومية الاميركية.

ويثور هنا بهذا الصدد سؤال: كيف يستطيع العالم العربي ان يناشد هذا الشعب الاميركي، ويخاطبه فيتوصل الى قرارة ضميره، ويساعده حتى ينفض عن نفسه السيطرة اليهودية؟ وقد يظن ان الجواب على هذا السؤال ينحصر في القول بوجوب القيام بدعاية نشيطة – بواسطة مكاتب مخصصة لهذا الغرض، واجهزة الدعاية الأخرى – تعرّف الرأي العام الاميركي على الاحوال في العالم العربي وتبطل مفعول وسائل الدعاية اليهودية التي تعرّفه تعريفاً جزئياً ومشوهاً على القضية الفلسطينية. بيد ان هذا ليس بالجواب الاخير عن السؤال الذي ذكرت. فبقطع النظر عن مسألة امكانية انشاء اجهزة دعاوية وادارتها وتمويلها وجعلها على مقدار من القوة تستطيع ان تناهض اجهزة الدعاية اليهودية – بقطع النظر عن مسألة امكانية هذا العمل او عدمها، هناك اعتبار آخر، هو ان الشعوب في عقائدها الاساسية ونظراتها الاخيرة ليست وليدة الدعاية فحسب. فعدم مناصرة اميركا للعرب ليس ناجماً

وحسب عن عدم قيامنا بدعاية كافية فيها، او عن عدم معرفة الاميركيين عنا. واذا كنا سنظل كما نحن، فمن الخير ان لا يعرف الشعب الاميركي عنا اكثر مما يعرف.

للدعاية مقامها واثرها. بيد ان الاهم من الدعاية والامر الذي يجب ان يسبقها، هو حصول التبدل الاساسي الملحوظ في الحياة العربية – في الكيان الشخصي وفي المؤسسات في العالم العربي. اذا حصل هذا التبدل، وجرى الانقلاب الثوروي في العالم العربي، وانتفض فنفض عن نفسه الجهل والتفكك، عندئذ يستطيع العالم العربي ان يخاطب الشعب الاميركي فيصغي، وان يناشده فيلبي، وان ينبهه فينتبه. لا مندوحة عن اثارة الامور الاساسية في هذا الصدد. والامر الاساسي هو انه على العالم العربي ان ينظف نفسه ويجدد حياته قبل ان ينتظر من الشعب الاميركي، او من اي شعب آخر، ان يتعرف اليه فيعجب به ويحبه وينتصر له، بدلاً من ان يتجفجف منه ويتنكر له.

ولا يتوقعن العرب ان يتوصلوا الى قرارة الضمير الاميركي قبل ان يحصل في كيانهم هم ما يجعلهم راضين عن نفسهم في قرارة ضمائرهم.

١٧. رصيد الموازنة

بالنظر للشقة الواسعة بين وضع اليهود والعرب في اميركا، والمتفاوت الكبير بين وزن الكفتين في

الاوساط السياسية الاميركية، قلت في ما سبق واقول الآن ان أمل العرب من الحكومة الاميركية قليل، وامكانية انتصار الاميركيين للقضية العربية ضئيلة. وفي كل تعارض جوهري بين اسرائيل والعالم العربي تؤيد أميركا وستؤيد اسرائيل. واذكر بهذا الصدد ما سبق لي ان رفعت بشأنه تقارير ضافية الى الحكومة الجليلة، من تشاؤم السيد مريم (الموظف السابق في الخارجية الاميركية) وتشاؤم السيد بلت (سفير كوبا السابق في واشنطن)، وكلاهما من أنصار العرب. يبني هذان الرجلان المسؤولان تشاؤمهما على خبرة عشرات السنين للسياسة الاميركية وعلى معرفة حميمة مباشرة للعوامل الفاعلة فيها بالقياس الى الشرق الاوسط.

ان قيام اسرائيل حتى اليوم، ورسوخها، وتوسعها، وتعديها في المستقبل، ناجمة الى حد بعيد عن التأييد الاميركي المباشر، المتأتي عن الوزن اليهودي في اميركا، وعن التأثير اليهودي في العقلية الرسمية للحكومية الاميركية.

ولا يتم هذا التأييد وحسب في المنظمة الدولية، بل يتعداه الى كافة حقول العلاقات الاميركية اليهودية - كالاعتراف الاميركي باسرائيل (الذي تم فور اعلانها) وكالقروض المالية السخية التي اعطيت والمزمع اعطاؤها - كما يتعداه أيضاً الى تغاضي الحكومة الاميركية عن تهريب السلاح الى اسرائيل بكميات كبيرة جداً وبصورة مستمرة، والى تشجيع الاوساط الرسمية

الاميركية لحملات جمع الاموال في طول البلاد وعرضها لاسرائيل، والى امكان الغاء العقوبات عن الاميركيين الذين اشتركوا في الحرب في صفوف الجيش الاسرائيلي (ذلك الالغاء الذي ما يزال قيد الدرس).

وثمة مجال لدراسة علمية هادئة مسؤولة، تقوم بها الحكومات العربية بواسطة مفوضياتها هنا وسفاراتها، لتعيين مدى ما حدث ويحدث في هذه الحقول.

ان ادراك المسؤولين العرب لهذه الحقائق كلها، دون مبالغة ودون انتقاص، لأمر لازم. بيد ان هذا الادراك يجب الا يقود الى اليأس. اجل. ان وزن اليهود في اميركا يفوق بما لا يقاس وزن العرب فيها. والعرب لا يستطيعون ان يرجحوا كفتهم غربياً او اميركياً في الوضع الحالي - اي، ما دامت الحالة في العالم العربي نفسه كما هي. اذن فالفعل الاساسي لترجيح كفة العرب في اميركا او في اي بلد غربي آخر لا يكون في المقام الأول في العمل في الغرب نفسه بل في العالم العربي. وان الوسيلة الأولى لموازنة الضغط والوزن اليهوديين في الغرب ليست في محاولة احداث ضغط ووزن غربيين في الغرب بل في احداث ضغط ووزن عربيين في العالم العربي نفسه. وخلاصنا لا يتم في الغرب، بل يتم فقط في بلادنا، بمقدار ما نستطيع الانتفاض والإصلاح في نفوسنا وحياتنا الشخصية والاجتماعية. من العبث اذن ان نحاول ان نسابق اليهود حيث لديهم

الوزن الاكبر: بل الواجب، على العكس، ان نكتشف مصادر قوتنا، ونقويها حيث هي، فنسابقهم على صعيدها هي. ومصدر قوتنا هو نحن انفسنا: في ما نستطيع احداثه من تبدل في حياتنا واصلاح في مجتمعاتنا. ولنا أمل وعزاء في ان المسألة ستقرر، في السياق الطويل، في بلادنا، والصراع مع اسرائيل سيتم في العالم العربي نفسه: فاذا كنا اكفاء للظفر على اسرائيل وللبقاء في عزة الكيان وكرامته، قمنا بما يترتب علينا، وبما نحن مدعوون له، من اصلاح في الحياة العربية، فضمنا لانفسنا القوة الذاتية والوزن في الأوساط الاجنبية، واذا لم نكن اكفاء للظفر والكيان، على تقاعسنا عن هذا الاصلاح، وبقينا حالنا من التأخر والتفكك، وظللنا نلقي تبعة فشلنا على الغير ونلقي اتكالنا أيضاً على الغير او على الظروف والصدف او على العوامل اللاانسانية، فساهمنا بالتالي في بقاء اسرائيل واستقرارها، وعبدنا الطريق لامتداد سيطرتها على العالم العربي ولانشائها العهد الاسرائيلي في هذه الحقبة من تاريخ العالم العربي.

ان الكلمة الاخيرة حول مصير اسرائيل ومصير العالم العربي ما تزال بيد العرب. والفترة الحالية هي محك لارادة العرب وقدرتهم على تقرير شؤونهم وصياغة مصيرهم على النحو الذي يريدون، وامتحان لاهليتهم للبقاء والكرامة.

اذا واجه العرب مهماتهم الجسام ببصيرة وحكمة

واخلاص وجرأة وتنظيم، فقد يأتي يوم، ولعله قريب، يقال فيه: بوركت اللحظة التي نشأت فيها اسرائيل، اذ كانت لحظة كشفت لبصائرنا عما سبق واغفلناه او تعامينا عنه، وحفزت ارادتنا للقيام بما سبق وتقاعسنا عن اجرائه، واعادتنا الى انفسنا بعد ان كنا عن انفسنا لاهين وعلى سوانا متكلين.

الفصل الخامس

ما العمل؟

١٨ . العبرة في التقرير والعمل

لقد عرّفتنا اسرائيل، في محض قيامها وسط العالم العربي ورغم ارادته، بضعفات العرب، ودلّت على نواح مظلمة في الحياة العربية كان الكثيرون غافلين عنها، متجفجفين من ادراكها، راغبين عن الاعتراف بها غرقاً منهم بنشوة الافتخار بالمظاهر السطحية ولهواً منهم بالقشور.

وقد واجهتنا اسرائيل، في محض وجودها في صميم العالم العربي، بواقع لا نستطيع الا ان نحسب حسابه في كل ما يتعلق بمصيرنا ومستقبلنا. وحمّلتنا مسؤوليات كبرى تجاه انفسنا وتجاه الاجيال العربية القادمة. فأصبح لا مندوحة من تقرير حتى علاقتنا بأنفسنا من خلال واقع اسرائيل ومغزاها وتحديها لنا.

في هذه اللحظة من حياة العرب، أكثر من اية لحظة

سابقة، ندعى الى اتخاذ مقررات حاسمة، يتوقف عليها مصيرنا لسنوات وأجيال، وقد يتوقف عليها بقاؤنا على الاطلاق. وبالنسبة الى الصفاء الفكري في رؤية الحقيقة، والى الحكمة في اختيار المقررات، والى الجرأة في اتخاذها، والى التنظيم والحزم والصبر في تنفيذها، بالنسبة الى هذا كله، يتعين مدى انتهائنا من محنة اسرائيل الى التخلص من أخطارها او الى الوقوع تحت سيطرتها واستعبادها.

وبطبيعة الحال، ان مقرراتنا واعمالنا ستقع في حقول ثلاثة، الحقل الداخلي والحقل الخارجي العام وحقل مجابهة اسرائيل مباشرة وعلاقتنا بها، ولذلك فسأتناول في ما يلي هذه الحقول تباعاً.

وسيكون بحثي لها مقتضباً جداً، اقرب الى الاشارات الخاطفة وتصوير الخطوط الرئيسية والهياكل العامة، منه الى البحث التفصيلي التوسعي. واذا بدا في ما أقوله شيء من الابهام او الغموض، فذلك ليس ناجماً عن طبيعة الشيء عينه، بل عن طبيعة الطريقة التي اخترت اتباعها، اي طريقة العرض السريع للخطوط العامة.

١٩ . الحقل الداخلي

تشمل خطوط العمل في الحقل الداخلي التي سأعرض لها، السعي الحر لمعرفة الحقيقة ونظرها،

وتوحيد كلمة العرب بتجديد الجامعة العربية، واعداد جيوش عربية قوية، وانشاء حركة تحررية صحيحة شاملة.

اولاً: في الحرية التامة لمعرفة الحقيقة ونظرها، خلاصنا وبلوغنا مرتبة الكيان الانساني الاصيل. ومعرفة الحقيقة التامة، لاسيما نقاط الضعف عندنا من جميع نواحيها، معرفة حرة مبصرة هادئة، ملؤها النعمة وملؤها الآلام وملؤها الفرح، هي باب الخلاص الاول.

بمقدار ما يكون الفكر حراً، بذلك المقدار عينه يكون فكراً على الاطلاق. ومصيبتنا الكبرى ان الفكر عندنا ليس حراً: ليس حراً لينشد الحقيقة سافرة صافية، ليس حراً لينشد الحقيقة لاجل نفسها، ليس حراً لينشد الحقيقة ويبصرها مهما كانت عواقبها ومهما كان ثمن رؤياها. فكرنا ليس حراً لانه مشدود مقيد، لأنه مغلوب على أمره غوغائياً وعاطفياً وتاريخياً وخرافياً. فكرنا ليس حراً لأنه مشدود في ذاته الى اعتبارات لا تمت الى الفكر والحقيقة بصلة، وتحفزه الى الفعل دوافع غير دوافع معرفة الحقيقة ورؤيتها، وتشوه نظره بالتالي اهتماماته بسوى الحقيقة والنظر. ودون تحرير الفكر من عقالاته، وتحريره على نطاق واسع جداً، ليس لنا أي أمل على الاطلاق.

الحرية شرط بلوغ الحقيقة ورؤيتها. والحقيقة هي شرط الحرية الأخير، وهي وحدها التي تحرر. اطلاق

الحرية لبلوغ الحقيقة، وبلوغ الحرية الكاملة في احضان الحقيقة، من هذين الفعلين المتفاعلين، يتمم احدهما الاخر بل يقومه، يتألف نزوعنا نحو الكيان الاصيل، وخلاصنا من الاخطار المحدقة بنا والمهددة بقاءنا على الاطلاق. وأقصد بالحقيقة الحقيقة الكاملة: حقيقة انفسنا، وتاريخنا، ومركزنا في العالم، وامكانياتنا، وحدودنا، ومصائبنا. هذه هي الحقيقة التي علينا ان نقدسها والتي ادعو الى قيام بؤر تنشدها وتسعى وراءها حتى تنالها.

بلدان العالم الواعية كلها تطلب نشر العلم، والتجرد في البحث، وحفز الفكر ليتنور فينير. وبلادنا متأخرة في هذه كلها، واصلاحها الداخلي الصحيح يبتدئ منها. وتنطوي هذه الدعوة على ربط العالم العربي بمصادر النور والعقل والحرية والخلق، كما تنطوي على القيام بحركات بحثية تأليفية عميقة أصيلة تشجعها الحكومات، وحركات نقل ونشر واسعة النطاق تدعمها الحكومات وحركات نقد مسؤولة جريئة تصونها الحكومات، وفوق كل هذه، حلقات فكر تضم المفكرين يتفاعلون فيها معاً تفاعلاً صاخباً خلاقاً، ويجابهون فيها بعضهم بعضاً مجابهة الفكر للفكر، اي مجابهة ملؤها المحبة وسعة الصدر واحتمال الاختلاف ولو كان جوهرياً، والصبر على الفوارق الاساسية لتتقارب بنعمة المحبة وبنور الحقيقة، والاشتراك في الخبرة والرؤية كما في السعي والنشدان. مثل هذه

الحركات تقوم على مستوى الاكاديميات والمعاهد العلمية الراقية الموجودة في الغرب، ويتطلع اليها ناشدو النور عندما يزيغ عقلهم في الظلام، كفيلة بأن تكون مشعال حق نير وعزاء فرح عندما تطغى الظلمة والكآبة، وواحة ثرية نضرة في صحاري الجهل الشاسعة.

ويشمل هذا الفعل الروحي تشجيع العلم النظري الصافي، والبحث النظري الخالص، لجلاء الحقيقة من أجل نفسها، وبمقدار ما العقل العربي بطبيعته وتراثه راغب عن النظر نازع نحو التفكير المشروط بمقياس فائدته ونفعه ونتائجه، بذلك المقدار نفسه يتوجب علينا تشجيعه لينشد الرؤية الصافية والنظر الخالص، وليسعى وراء الحقيقة غاية بنفسها وقيمة بذاتها.

ولست، اذ ادعو الى حدوث هذا التجدد الأساسي في حياتنا الفكرية والعقلية، بداع للمستحيل، او بطالب أمراً بعيداً عن امكانياتنا وتراثنا وحقيقتنا الاصيلة. فللبلدان العربية، فرادى ومجتمعة، مجد وماض نير. وقد قامت فيها بالفعل، في عصورها الذهبية على مختلف الحقب التاريخية الناهضة التي مرت بها، حركات عقلية ونشاطات فكرية ذات صفاء، كانت - على الرغم من ضآلتها بالنسبة لما تستطيع ان تكون - هي هي مآثر بلداننا الاصيلة للحضارة. ولئن كان العالم العربي قد انحط في الحقبة الاخيرة، فتضاءلت فيه او تلاشت من حياته هذه النزعات، فليس ذاك بالواقع

الدائم الثابت المحتم، بل على المسؤولين والواعين ان يغيروه. ولنا في انجازات الماضي حافز لهذا التجديد ودليل على امكانية حدوثه.

بيد ان اطلاق حرية الفكر، وتشجيع حصول التجدد الفكري، على النحو الذي نوهت به، لا يعنيان بالضرورة انفلات الفكر من كل عقال، اذ ان الفكر الحر هو الفكر الساعي وراء الحقيقة، المبصر وجهها، المسؤول نحوها مسؤولية داخلية ضميرية ثقيلة. كما ان الدعوة لاطلاق حرية الفكر أيضاً لا تعني جعل المناداة بالحقيقة اعتباطية سائبة. ان اطلاق حرية الفكر أمر مبدئي مستقل كل الاستقلال عن المشكلة العملية الآتية: هل من الحكمة المناداة بالحقيقة على رؤوس الاشهاد، واشراك العامة بمعرفتها. اني في كل ما قلته فيما مر، كنت اتحدث عن المؤسسات والأفراد ناشدي الحقيقة. وان ما جزمت وما اجزم به هو انه ما دمنا ليس بيننا افراد او بؤر او مؤسسات الهها هو الحقيقة ولا ترضى عن الحقيقة بديلاً، فلا يمكننا ان نقف على أرجلنا مطلقاً. وان الدعوة الى تشجيع قيام «كهان للمعرفة»، لا تعني بالضرورة الدعوة الى تشجيع اعلان الحقيقة كلها وفي كل الظروف وعلى الجميع. بل ان المعرفة بذاتها تحمل العارف مسؤولية في الاعلان وحكمة في القيام به، والحقيقة بنفسها تشير الى مقاييس ومحكات اعلانها او عدم اعلانها. ولذلك، فان مشروطية الاعلان عن الحقيقة لا تجعل نشدان الحقيقة

عينه مشروطاً، وان الخشية من انفلات التعبير عن الحقيقة ومن خطر الاعتباطية فيه لا تبرر الخشية من اطلاق حرية الفكر التامة.

ولبنان مدعو اكثر من أي بلد عربي آخر الى اطلاق حرية الفكر والنظر، والقيام بهذا التجدد الفكري العقلي الصاخب. فبمقدار ما هو اكثر البلدان العربية أهلية للنشاط العقلي، بذلك المقدار عينه هو أكثرها التزاماً بتشجيعه. وإذا كانت البلدان العربية الاخرى مؤهلة وقادرة ومدعوة لإمداد المجموعة العربية بالجيوش أو بالقمح أو بالدفع المادي الصاخب أو بالعاطفة والـMystique – مما لا قبل للبنان بإمداده الى الدرجة عينها – فكذلك لبنان مؤهل وقادر ومدعو لتقديم النشاط الفكري والتجدد العقلي القائمين في جو حر مسؤول. وليس في هذا الادراك للتباين في الكفاءات والتنوع في المقدرة، أو في الدعوة الى تخصص كل من البلدان العربية في ما يتناسب وقدرته ومؤهلاته، ما ينطوي على أي انتقاص من قدر أي من هذه البلدان. بل هو اقرار بأمر واقع، ودعوة الى استكماله.

إذا لم يقدس لبنان حرية الفكر بمعناها الصحيح، وإذا لم يصن البحث عن الحقيقة ومعرفتها بقوانينه وحكومته وجيشه، ينتفي مبرر بقائه، بل ينتفي وجوده على الاطلاق، ويصبح أمر انضمامه الى غيره، شرقاً أو غرباً، بالمـ؟ أو بالسيطرة، رهن الوقت.

صديق لبنان هو محب حرية الفكر ومشجعها.

وعدو لبنان هو الناظر اليه سياسياً لا من وجهة نظر الفكر وحريته، الباغي بقاءه واقعاً سياسياً على أساس محض سياسي، لا الباغي كيانه كياناً انسانياً موطناً للفكر الحر النير الصافي.

ثانياً: العمل على توحيد كلمة العرب وتجديد الجامعة العربية، ولكن ليس على حساب لبنان وحرياته. فبقدر ما يوحد العرب كلمتهم وإرادتهم وأعمالهم، ويعرفون كيف لا يفرطون بلبنان الحر المستقل، بهذا القدر عينه يستطيعون أن يثبتوا. لقد كان للعرب بعض الوزن في الاوساط الدولية عندما كانت الجامعة العربية تعمل، ولو بصورة غير كاملة. أما الآن والجامعة مشلولة، فقد اضعنا هذا الوزن. ومن الوهم أن تحسب مصر أو لبنان أن أياً منهما يستطيع، خارج الجامعة العربية وبالتالي خارج واجباته نحوها، أن يكون له حرية أكبر للتعاطي مع العالم العربي. قد يكون لأي منهما بالواقع حرية اكبر: بيد أن هذا التفلت من رباط الجامعة ليعني حتماً اعطاء كل منهما وزناً أقل.

بين البلدان العربية صفات ومصالح عديدة مشتركة وروابط قوية. وهذا الاشتراك في ما بينها يجب أن يتجسد ويعبر عن نفسه تاريخياً وفعلياً بواسطة منظمة يتناسب هيكلها وجهازها مع واقع البلدان العربية واشتراكاتها. هذا هو المعنى التاريخي الفعلي للجامعة العربية. ولما كانت الجامعة في مرحلتها الأولى لم تجسد هذا الاشتراك تجسيداً تاماً، وجب تجديدها.

وقد يقتضي هذا التجديد، في ما يقتضيه، لباساً جديداً أو قالباً جديداً، للجامعة، أولاً لأن الجامعة الماضية باتت تشترك في اذهان العرب مع ذكريات فشلها وانهزامها أمام اسرائيل، وثانياً لأن طابع التكتلات الدولية السياسية في العالم اليوم وهو طابع «الحلف» Pact أو Pacte، يختلف عنه يوم انشقت الجامعة وكان آنئذ طابع «الجامعة» League أو Ligue.

في سنة ١٩٤٤ وسنة ١٩٤٥ كانت الفكرة الدولية المسيطرة فكرة «جامعة» أو «جمعية» أو «منظمة»، ومن جو هذه الفكرة انبثقت «منظمة الأمم المتحدة» و«جامعة الدول العربية». أما اليوم فتسيطر على أجواء التكتلات السياسية الدولية فكرة «الحلف»: فمن حلف ريو في نصف الكرة الغربية، الى حلف الاتحاد الغربي، الى حلف دول الاطلنطيك، الى حلف الشرق الاقصى وحلف البحر الابيض المتوسط العتيدين، تتكتل كل مجموعة من هذه المجموعات الدولية تكتلاً دفاعياً استعدادياً للطوارئ في «حلف» في ما بينها. وما دامت فكرة الحلف هي المسيطرة على التفكير السياسي العالمي اليوم، فلا بأس في أن تتمشى الدول العربية في وحدتها المرجو تجديدها مع هذا التطور الدولي، وان تعطي وحدتها شكل «الحلف»، كما تمشت منذ سنوات مع مرحلة التطور القائمة آنذاك فأعطت وحدتها شكل «الجامعة». وهذا، علاوة على أن استبدال كلمة «جامعة» بكلمة «حلف»، وشكل الجامعة بشكل

الحلف، من شأنه أن يسهل ازالة اشتراك الجامعة مع ذكريات الفشل من الذهنية العربية ويجعل بالامكان أن تتطلع الشعوب العربية الى الجهاز المجدد بأمل وتساهم في دعمه وتقويته بنشاط.

لهذا فأنا أدعو الى خلق حلف عسكري واقتصادي، تتفاهم فيه الدول العربية في ما بينها، وتأخذ بعين الاعتبار لدن تكوينه الاحلاف الدولية الاخرى التي قد يكون لها مساس بالعالم العربي، كحلف البحر الابيض المتوسط مثلاً.

وليس لزاماً على «الحلف العربي» أن يبقى منقفلاً على ذاته، بل يمكن تأليفه بحيث تستطاع اضافة أية دولة أو دول حوله اليه كنواة. وكلما أسرع العرب الى تكوينه زادت امكانية فرضهم ذاتهم كنواة تحاك حولها الترتيبات الدفاعية المقبلة في الشرق الاوسط. أما إذا تباطأوا في خلقه فقد تداهمهم الحوادث بحيث يعتبرون ليس كنواة بل كهوامش في جسم النظام الدفاعي عن الشرق الأوسط.

ومن ضمن تجديد الجامعة العربية ثمة امكانيات لنشوء تراكيب داخلية تقوم بموجب اتفاقات خاصة وتكمل بعضها بعضاً فتقوى الرابطة القائمة بين مجموع البلدان العربية. فبلدان الجزء الشمالي الشرقي من العالم العربي في ما بينها، وبلدان الجزء الجنوبي الغربي في ما بينها، تستطيع أن تكون نواة للتركيبين الرئيسيين اللذين أرى من الممكن قيامهما. بيد أنه من

اللازم أن لا توجه احدى هذه التراكيب ضد الاخرى، أو تنافسها منافسة العداء، بحيث تشكلان تفسخاً في وحدة الجامعة العربية واضعافاً لقوتها المشتركة ومجالاً لاستفادة العدو الواحد. بل من اللازم على العكس أن يتناسق هذان التركيبان معاً ليزيدا في فعالية الجامعة العربية ووزنها وهيبتها. أي أن مبرر هذه التراكيب الاخير هو وجود اشتراك فعلي بين بلدان كل من المجموعتين في ما بينها، أقوى من الاشتراك العام القائم بين كل البلدان العربية: وكما ان هذا الاشتراك العام الاخير يتجسد في جهاز الجامعة العربية، فكذلك حري بالاشتراك الأول أن يتجسد في اتفاقات خاصة ضمن الجامعة العربية، على أن لا يشوش الاشتراك الأضيق على الاشتراك الأوسع أن يصدع صفوفه.

لكن هذه الروابط، ان في الجامعة أو في التراكيب القائمة ضمنها، يجب أن لا تتم على حساب لبنان وحرياته واستقلاله. وبقدر ما يتنكر العالم العربي للبنان، أو يضيق عليه الخناق ليتنازل مرغماً عن بعض حرياته، أو يرى في استقلال لبنان الكامل وحرياته غير المنقوصة عائقاً لاستكمال وحدته هو أو خفضاً منها، بذلك القدر عينه يثبت أنه ليس أهلاً للحياة المشتركة.

ومن الانصاف أن نذكر أن عرقلة توحيد كلمة البلدان العربية لم تأت ولا تأتي من لبنان. إن ترك الدول العربية لبنان يتمتع بحرياته ويمارس حياته على ضوء قيمه الأخيرة، والتفاعل معه ضمن احترام حرياته

واستقلاله، والاشتراك معه في الشؤون المشتركة التي تعني العائلة العربية بكاملها، إن هذا لمقياس لدرجة نضوج الوعي العربي السياسي. كما ان التسرع في ابتلاع لبنان لدليل على عدم نضوج الوعي العربي السياسي وعدم ادراك العالم لمصالحه. وبامكان لبنان الحر المستقل، أن يكون أخلص البلدان العربية على الاطلاق، في نظره الى المشاكل العربية وبذله في سبيلها.

ثالثاً: اعداد جيوش عربية قوية قادرة على حماية الحدود العربية وصيانة مصالح العالم العربي. والجيوش العربية الحالية ليست سوى نواة للجيوش المبتغاة، وخطوات اولية في اعدادها. فبإنماء عدد الكتائب العربية في كل بلد عربي، وبتجنيد الشبان من مختلف الصفوف والفئات والطبقات الشعبية بأعداد متزايدة، وبإتقان تدريبها على نمط أحدث الجيوش العصرية وارقاها، مع الاخذ بعين الاعتبار الطبيعة الخاصة للاراضي العربية التي يتوقع أن تخوض هذه المعارك فيها، وطبيعة المهمات الخاصة التي ستلقى على عاتق هذه الجيوش، لاسيما في صراعها العتيد مع الجيش الاسرائيلي، وباستكمال برامج تسليحها بالاعتدة الحديثة الكافية، وبخلق شعور من الوحدة لدى افراد هذه الجيوش، ضمن اطار النظام والطاعة، وبتخليص الجيش، في تدريبه وقيادته وخططه، من السياسة وكافة الاعتبارات السياسية، وجعله فوق

السياسة، وبرفع معنويات الجيش وحفزه للتفاني ذوداً عن حدود الوطن وكرامته، وفوق كل شيء، بتوفير القناعة الكافية لدى كل جندي بسلامة الاستقلال في وطنه وبأهلية بلاده للبقاء، بحيث يشعر أنه يدافع عن استقلال وطني صحيح ووضع اجتماعي حري بالصيانة، لا عن وطن متأخر ووضع مهلهل - بهذه الوسائل كلها تصبح الاداة المنفذة لارادة الدول العربية اداة منفذة بالفعل، منيعة ضد العدوان المتوقع، كفيلة لا برده فقط بل أيضاً بزجره قبل وقوعه. إذ بمقدار ما للجيوش العربية من قوة ومهابة، بذلك المقدار عينه ستتردد اسرائيل في الولوج بحرب مع الدول العربية أو مع احداها. ولا يكفي أن تتقوى جيوش البلدان العربية فرادى. بل من اللازم أيضاً تنسيقها معاً وضمان قدرتها على القيام بعمل مشترك موحد ضد عدو واحد لدى الحاجة. وهذا لا يتم ما لم تقترن برامج تقوية كل جيش عربي، ببرنامج تنسيقها معاً، حتى ولو اقتضى ذلك، فوق تبادل بعثات الضباط وتوحيد الرتب العسكرية وتوحيد أساليب التدريب وسواها، انشاء مجلس أركان حرب عربي فعال ينسق مناهج اعداد هذه الجيوش ويوحد عملياتها العسكرية عند الحاجة.

لقد بت مقتنعاً أن العصر الذي نعيش فيه هو عصر يحسب للقوة فيه حساب كبير. وسياسة الأمر المفعول، كسياسة القوة، هجومية كانت أم دفاعية، لم تزولا في عصر الاحتكام القانوني والتداول السلمي

والمنظمة الأممية . وبقطع النظر عن كل اعتبار آخر ، فإن الدولة ذات الحق في أية قضية من القضايا ، يكون لها وزن أبلغ لصيانة حقها إذا كانت لها قوة أكثر فعالية ومهابة . ولقد علمتنا محنة فلسطين أنه لو استطاعت الجيوش العربية أن تسحق مقاومة جيش اسرائيل ، لاتخذت المساومات الدبلوماسية والمداولات السياسية في ما بعد مجرى آخر ، ولكانت الكلمة الاخيرة للدول الظافرة . ويزداد وزن الدول العربية ذات الجيوش القوية كثيراً إذا ما قامت حرب عالمية جديدة ، فقدم العالم العربي لصف حلفائه المختارين لا موقعاً جغرافياً ستراتيجياً وحسب ، بل قوة عسكرية تساهم على الاقل في الدفاع عن ذلك الموقع .

رابعاً : نشوء حركة تحررية صحيحة شاملة ، هدفها انقلاب اجتماعي اقتصادي فكري صحيح شامل . هذا التحرر الاصلاحي الشعبي الداخلي ، شرط لأي اصلاح آخر ولأي اجراء يبغي الدفاع عن العالم العربي وكيانه . أن مصير العالم العربي ليتوقف ، في المرحلة الاخيرة ، على العمل الحاسم الذي يجب أن يقوم في العالم العربي نفسه .

أما خطوط هذا الاصلاح وأشكاله وقوالبه ، وبرنامج هذه الحركة التحررية ، فتعيينها وتصميمها يجب أن يناطا بفئة من الاخصائيين في كل حقل من الحقول ، يعملون على ضوء خبرة الشعوب الراقية وتاريخ الحركات الاصلاحية ، وعلى ضوء الاوضاع القائمة في

العالم العربي ومؤهلاته . وليس بالامكان إذن وضع تصميم تفصيلي ، مسؤول ، ممكن التحقيق ، إلاّ بالاستناد الى خبرة نفر عارف مخلص مسؤول كهذا . وقد يكون انتداب الحكومات العربية ، فرادى أو ضمن الجامعة ، نفراً من الاختصاصيين البارزين ، لوضع مثل هذه البرامج الاصلاحية ، الخطوة الاولى الواجب اتخاذها ، إذا توافر الاعتزام الصادق لدى المسؤولين على المساهمة بقسطهم من تجديد حياة العالم العربي ، وتشجيع الانتفاضة الجريئة على نظم حياته البالية وانعتاقه منها .

وكما أن هذه الاصلاحات لا تكون أصيلة إلاّ إذا انبثقت عن تخطيط محكم ودرس مسؤول ، فلم تأت مرتجلة وبنت ساعتها ، أو لم تكن وليدة ضغط الاوضاع العارضة ، أو وسيلة تخدير أو الهاء أو ارضاء للشعب موقتة – فكذلك ان هذه الاصلاحات لن تأتي من تلقاء نفسها ، ولن تنجم عن تطور الاوضاع تطوراً تلقائياً صدفياً لا تخطيط وراءه ولا تصميم . إن الاتكال على التطور الطبيعي ليحدث هذه الانقلابات الجوهرية لخطأ خطر . وهو أما أن يكون من باب قصر النظر والتفاؤل الواهم والاتكالية على الظروف ، أو أن يكون سبيلاً للتهرب من مجابهة مهمة القيام بهذه الاصلاحات . ان اصلاحات جوهرية اساسية تتناول حياة شعب بكاملها ، لا يمكنها أن تحصل إلاّ بفعل قرارات حاسمة جريئة مسؤولة . وما لم يعتزم المسؤولون اتخاذ هذه

القرارات، ويتحملوا تبعاتها، - بما في ذلك تبعة رد الفعل الذي سيقوم به ولا شك أرباب المصالح المتركزة الراغبون في استمرار الاوضاع على ما هي والعامدون حتماً الى معارضة كل محاولة جدية لتبديلها - ما لم يعتزم المسؤولون ذلك، فعبثاً ينتظرون من التطور بحد ذاته أن يحدثها، اليوم أو بعد عشرات السنين.

ومن اللازم، على كل حال، توخي الامر الاساسي التالي في هذه الاصلاحات: ان تكون ملحوظة بادية للعيان، ملموسة الاثر، بحيث تفرض على المراقبين الاجانب الاعتراف بحصولها والاحساس بأننا قد تزحزحنا عن جمودنا السابق وانطلقنا نحو العمل والفعل، كما وتطمئن الى اطلال عهد الاصلاح الجريء والانقلاب التحرري الجوهري. أما الشعوب العربية هذه، فقد عبرت حتى الآن مراراً، وبأشكال مختلفة، عن عدم رضاها عن الاوضاع الحاضرة، وعن تلهفها لرؤية تبدلات جوهرية في نظم الحياة العربية، وقد صبرت وصبرت طويلاً، وصبرها هذا قد لا يستمر أو لا يطول أمده إذا أدركت أن الاصلاح المبتغى بعيد الحصول. وأما المراقبون الغربيون فيتوقعون حصول هذا الاصلاح، ويستغربون أن شيئاً من بوادره لم يبد بعد. وأخشى أن يكون عدم أي رد فعل اصلاحي في العالم العربي، على أثر فشل الدول العربية في فلسطين، قد يكون دليلاً مقنعاً للغرب على الضعف والتأخر اللذين طالما اتهمنا بهما اليهود ورمانا بهما

مراقبو العالم العربي الغربيون. واني واثق أن الغرب الذي لا يزال حتى اليوم يتحدث عن اصلاحات مصطفى كمال الجريئة الملحوظة، لكفيل بأن يتحدث بالاعجاب والتقدير عينهما عن الاصلاحات المماثلة في العالم العربي حين تتم. وما اهتمام الصحف، حتى والأميركية منها بل والموالية للصهيونية، بالانقلاب الأخير في الجمهورية السورية، وتبسطها في وصف مظاهره البارزة الملموسة - كاعطاء حق الاقتراع للنساء، ونزع الطربوش، وتحسين وجبات الطعام للجيش ورفع معنوياته - ونشرها رسم فخامة الزعيم مع زوجته في حفلة كوكتيل، مثلاً - ما هذا الاهتمام كله سوى الدليل على صحة ما أجزم به، من تقدير الرأي العام الغربي واحترامه لبوادر الاصلاح في العالم العربي حين تبدو.

عندما يوازن الغرب اليوم بين العربي واليهودي، تتمثل له حالاً صورتان: صورة الصحراء والارياف المتأخرة والمدن الخاملة والحكومات المهلهلة والحياة الشعبية الجامدة والثقافة المتأخرة، من جهة، وصورة النشاط الذي استبدل الصحراء جنة، واشاد القرية نموذجاً للحياة الخصبة الثرية، واقام المدينة حيزاً للحيوية البشرية الخلاقة، وانشأ الحكومة تمثل ارادة اجماعية للتنظيم والتقدم، ولم يهمل حتى في لحظات صراعه شؤون الثقافة والعلم والفن والفكر، من جهة ثانية. ولن يغير هذا التصوير الواقعي، سوى نهضة

واقعية في العالم العربي، يلمسها الغرب لمس اليد، ويشاهد في كل يوم اثرها في الحياة العامة والخاصة، في الفعل لا في القول.

أما إذا قامت بيننا الحركة التحررية التي اتحدث عنها، وحصلت الانقلابات والاصلاحات الجوهرية الملحوظة، فعندئذ نستطيع أن نقف لنقول: نحن ورثنا حالة من الاقطاع فألغيناها، وتحدرت الينا من الماضي عادات ونظم، كالحجاب مثلاً، فاقصيناها، وانتفضنا على الحواجز المذهبية في الحياة المدنية فبددناها، وادخلنا الى نظمنا الحكومية تعديلات اساسية تضمن صيرورتها حكومات تخدم الصالح العام وتنفذ ارادة الشعب وتحقق خيره. وعندما نقف لنقول هذا، بعد فعله، فإن الغرب اليقظ المراقب ليصغي، وفي اصغائه بدء تقديره، وعودة الى احترامه لنا وتوقعه اننا سنثبت ونحيا.

وفي طليعة الاصلاحات الملحوظة التي ادعو اليها، اشراك الشعب في تقرير شؤون بلده، ورفع الشعب من حال الحرمان والتأخر التي يعانيها الى مرتبة الكيان البشري الراقي، للاشتراك في ادارة شؤونه، المسؤول عن قراراته وعن اراداته، عن اعجابه وعن سخطه وعن نقده. إن أكثر من الثمانين بالمائة من الشعوب العربية ليسوا بشراً. إنهم محرومون مادياً واجتماعياً وروحياً. ومن أكبر الاخطاء أن يتوهم المسؤولون إن هذا الحرمان كفيل بإبقاء الأمن مستتباً، أو بإبقاء الاستئثار

بالسلطة سهلاً. إن هذا الحرمان، على العكس، هو هو التربة الخصبة لانتشار الايديولوجيات الداعية الى الفوضى، وبالتالي للتمهيد لقلب الاوضاع بصورة ثوروية فنائية متخبطة عمياء. إن خطر الظلمة تترعرع فيها اكثرية شعبية وتتغذى حقداً وكراهية وبغضاء ونهماً للانتقام، لأبلغ بكثير مما يزعم أنه خطر النور يوقظ الضمائر ويعرف الشعب بحقوق له مهضومة أو بأوضاع تحوطه فاسدة. وفضلاً عن ذلك، فإن استمرار حالة لا يشعر فيها الشعب بأنه قسم من الجهاز الحاكم، لتكبّل أيدينا بحيث لا نستطيع على الاطلاق أن نواجه اسرائيل، التي قامت على اساس التجنيد الشامل لكل موارد القوى في ارضها وعبر ارضها، والتي فازت في صراعها معنا بفضل التفاني التام يقوم به كل فرد في مجموعها طواعية واختياراً، والتفاف الجميع - على تفاوت نظراتهم السياسية والايديولوجية ومصالحهم الاقتصادية والطبقية - حول قيادتهم. إن لم يشعر الشعب أن حكومته منه وله، وأنها مسؤولة نحوه مبتغية خيره، وأنه هو مساهم في تركيبها قيم على أعمالها، فعبثاً ننتظر منه أن يشعر أن فشلها فشله، وأن مسؤوليتها هي أيضاً مسؤوليته، وأن المهمات التي تواجهها هي مهماته فينطلق للمساهمة في مواجهتها مضحياً بكل ما لديه من غال ورخيص.

ومشاركة الشعب في تقرير شؤون بلده، لا تكون وحسب في رفعه من حالة التأخر وانتشاله من الحرمان

الذي هو فيه، بل تكون أيضاً في اطلاق الحرية لأحزابه وصحافته لتعمل، ضمن نطاق القانون والنظام وضمن حدود المصلحة العامة، على تنوير الرأي العام وتوجيهه، وعلى تنظيم صفوفه وجمع اراداته المبعثرة، كما وتكون في تنازل الجيل السابق عن استئثاره التام بكل مقدرات الحكم.

فاستمرار الشقة الواسعة بين الجيلين، واستئثار النفر الضئيل من الشعب بالحكم دون أن يكون للأكثرية المحرومة وزن أو ارادة من الاوضاع التي يجب أن يتناولها مبضع الجراح المصلح قبل أي سواها. وإذا اخذت نظم حكوماتنا، في صميم رقاباتها، شباب البلاد، فلن تكون الفئة الحاكمة هي الخاسرة، ولن تجني البلاد من جراء ذلك سوى الخير.

اني أدعو حكامنا وقادتنا الى التنازل، في نعمة ووقار وبعد نظر، للجيل الطالع الملتهب مثلاً المتحفز للعمل. ولعل حقيقة أخيرة تطبع وضعنا الحاضر أكثر من غيرها، وهي أن قادتنا وحكامنا، الذين قلدوا عنق البلاد قلادات خير لن تنسى، قد طال مع ذلك بقاؤهم في صفوف القيادة، وإن تبعات اللحظة التاريخية الحاضرة تستلزم دماً جديداً وتلهفاً نضراً للنظر والفعل والمسؤولية. والعالم العربي اليوم لا ينقصه، لله الحمد، هذا الدم النضر الكفء لجميع مقتضيات الساعة.

بقي أن نتساءل: أين يمكن لهذه الحركة التحررية

الاصلاحية أن تنشأ في العالم العربي؟ أفي اليمن؟ أم في المملكة العربية السعودية؟ أم في العراق؟ أم في مصر؟ اني أشك جداً في أن أياً من هذه البلدان العربية يستطيع أن يكون السباق الى احداث هذه الانقلابات، او أن يكون حامل مشعالها الى البقية الباقية من البلدان العربية - على الرغم من أنها تتفاوت في ما بينها في عدم استعدادها واهليتها لأن تلعب هذا الدور التاريخي المهم. بقي امامنا، بين الدول العربية كلها، لبنان وسوريا. فهل من المقدر للنظام السوري الجديد أن يقوم بهذه النهضة؟ وهل من المقدر للبنان أن ينافس النظام السوري الجديد في ذلك؟ إني أجزم بأن هذه النهضة المرجوة لن تقوم، إذا قامت على الاطلاق، إلاّ في لبنان، أو في سوريا، أو في لبنان وسوريا. فهل يعي لبنان مسؤولياته في هذا الحقل؟ وهل هو مستعد للتعاون في هذا السبيل مع النظام السوري الجديد، دون تفريط في أي من حرياته وفي استقلاله؟

٢٠. الحقل الخارجي

إن وضع سياسة خارجية حكيمة، واشتراك الدول العربية في تنفيذ خطوطها بانسجام، لمن المهمات الواجب اداؤها على اساس واع بصير خبير مسؤول. وها انني اقدم خطوطاً عامة لبعض الاتجاهات السياسية الخارجية التي أرى من الخير اعتمادها.

أولاً: اني احذر من الارتماء في احضان الروس سياسياً. ان اليأس من الغرب، والأمل بقوة روسيا، لنهج خاطئ. والدول التي تبني سياساتها البعيدة المدى على أسس سلبية أو ارتمائية، قد تستيقظ بعد حين لتجد نفسها في اوضاع اشد خطراً من اوضاعها الاولى. وقد وجد شيء من الميل نحو هتلر في العالم العربي، حينما كانت المانيا النازية منتصرة وقوية ومتحدية للغرب، وكان العالم العربي ناقماً على الدول الغربية. ومن الخير عدم الوقوع في هذه التجربة مرة ثانية.

ان ردة الفعل العربي ضد النكبة التي رمانا بها الغرب، وتلبية العالم العربي للتحدي الروسي الى الغرب والى العالم اجمع، لا يكونان في الارتماء بأحضان روسيا سياسياً، او في السير بركاب السياسة الروسية. بل ان هناك رد فعل صحيحاً ايجابياً للتحدي الروسي يحسن القيام به. وهذا لا يقع في الحقل السياسي، بل في الحقل الاجتماعي والاقتصادي. واقصد به الاستفادة من المبادئ الانسانية والاقتصادية والاجتماعية الصحيحة التي يتمثل بعضها جزئياً في النظام الروسي.

ثانياً: الأمل بأوروبا الغربية اكثر من اميركا. اذ ان مجال الاخذ والعطاء بين العالم العربي ودول غربي اوروبا هو اوسع بكثير منه بين العالم العربي واميركا او روسيا.

واخصص غربي اوروبا، دون اميركا وروسيا، لعدة

اسباب. اهمها ان الغربي-اوروبيين هم اقرب الناس الينا، ذهنياً وتاريخياً وخبرة. ومصالح غربي اوروبا تتعارض مع مصالح اليهود في العالم العربي اكثر مما تتعارض مصالح اميركا مع المصالح اليهودية، كما ذكرنا آنفاً. واني اتوقع بالتالي - كما سبق لي التنويه في الفصلين السابقين - ان تنسجم مصالح بريطانيا مع مصالح العالم العربي في الشرق الادنى، اكثر مما اتوقع ان تنسجم مصالح اميركا مع مصالحنا. وفضلا عن ذلك، فإن النفوذ اليهودي في اميركا اقوى منه في اوروبا، وليس من المحتمل ان يتبدل هذا الوضع فيسيطر اليهود في غربي اوروبا: لأن اوروبا مكونة اكثر من اميركا، وهي بالتالي مقفلة على اليهود، واستفادة اليهود منها، او توطيد اقدامهم فيها، بعيدة الاحتمال. بينما اميركا لا تزال قيد التكوين، وهي بالتالي مفتوحة الابواب للنشاط اليهودي، ومجال توطيد اقدام اليهود فيها واسع. ويجدر بنا ان نضيف الى هذه الاعتبارات اعتبارا آخر: وهو ان المانيا لم تمت، وانها لا بد ان تعود ثانية الى الظهور على المسرح الدولي الاوروبي، فتستعيد فاعليتها فيه ومركزيتها في الحياة الاقتصادية والسياسية الاوروبية. وقد تلعب مرة اخرى دوراً فعالاً في السياسة العالمية والشعب الالماني، المشبع بكراهية اليهود، لا بد ان يكون حاجزا يحول دون امتداد النفوذ اليهودي الى اوروبا بشكل فعال. ومع اننا لا نريد بحال من الاحوال بناء مستقبلنا على الكراهية، فيظهر انه

يمكننا التفاهم مع الغربي اوروبيين، خصوصاً بعد عودة العنصر الالماني الى الفعل البناء المشترك في اوروبا، اكثر مما يمكننا التفاهم مع الاميركيين.

لهذه الاسباب كلها انا آمل بأوروبا اكثر مما آمل بأميركا او روسيا، وادعو الى التفاهم الصريح الشامل البعيد المدى مع انكلترا وفرنسا. واني واثق انه اذا ما تقرّب العالم العربي، في نهضته المرتقبة، من فرنسا وبريطانيا - لا تقرّباً سياسياً فحسب، بل تقرباً روحياً وكيانياً ايضاً - ولم يتجفجف منهما ومن غربي اوروبا عامة، فان تلبية هذه الدول لدعوته، ومناصرتها له، ممكنة جداً بل محتملة الوقوع، شرط ان يثبت جدارته بالبقاء، وانه خليق بالاعتماد، قادر على استعادة قوته ووزنه واحترامه.

ثالثاً: العمل مع الكنيسة الكاثوليكية، حتى ولو اقتضى هذا بعض التساهل المسمح من قبل القوى الاسلامية، باعطاء بعض الامتيازات للكنيسة (بصدد المدارس التبشيرية مثلاً) والاقرار الفعال بمبادئ حرية المعتقد وحرية الفكر.

ان البابا قوة سياسية. وان تأثيره على جزء كبير من العالم الغربي يجب الا يستهان به. وللبابا اهتمام خاص بمصير فلسطين، لاسيما في ما يتعلق بالقدس وبعض المدن الاخرى ذات الآثار والذكريات الدينية. ويكفي ان نذكر الدور الذي لعبته في جلسة اخيرة للجمعية العمومية للامم المتحدة رسالة البابا بشأن تدويل القدس

وصيانة حرمتها الدينية، في تأجيل الاعتراف بالدول اليهودية ولو فقط الى بضعة اسابيع.

اني اعتقد ان القوى المسيحية على العموم، والكنيسة الكاثوليكية على الخصوص، حليف لنا بالامكان في نضالنا ضد الصهيونية. ومن الحمق وقصر النظر الا نتحالف مع هذه القوى الى ابعد حد.

رابعاً: العمل مع القوى الناهضة في آسيا، وخصوصاً في العالم الهندي.

ان آسيا آخذة بالنهوض، والدور الذي تلعبه في السياسة العالمية آخذ بالازدياد. وهذا النهوض هو اقرب شيء الينا، وعلينا ان نستفيد منه الى اقصى حد، لاسيما واننا نحن آسيويون.

وبين القوى الناهضة في آسيا، تركيا وايران والافغان والعالم الهندي.

اما تركيا، فحري بنا ان نحذو حذو نهضتها الكمالية الى الحد الذي أثبتت فيه تلك النهضة سلامة مبادئها وفعاليتها في تجديد القوى التركية واستعادة مهابتها. وحري بنا ايضاً ان نتفاهم مع الاتراك الى اقصى حدود التفاهم: مع العلم ان تركيا ليست صافية كل الصفاء في سياستها تجاه العالم العربي، ولا اخالها ترغب باخلاص ان ترى نهضة عربية جوهرية تقوم على حدودها. ولقد بدت بعض بوادر عدم الصفاء في نيتها بعد قيام اسرائيل. ولكن، مع حذرنا المستمر من هذا الخطر، يجدر بنا الا نبتعد عن اي تفاهم متبادل

وتضامن مخلص بيننا وبين الاتراك .

وكذلك فتعاوننا مع ايران وافغانستان وسواهما من دول الشرق الاوسط ، واليونان ايضا ، ضروري بمقدار تعاوننا مع تركيا .

اما العالم الهندي ، بشطريه الهندوسي والباكستاني ، فأهم من هذه الدول الشرقية وتفاهمنا معه اجدر واجدى . اذ ان لهذا العالم مستقبلاً خطيراً ، وقد يصبح هو محور الحركة السياسية الاجتماعية والى حد بعيد الاقتصادية في آسيا على العموم والشرق الاوسط على الخصوص . وقد يكون لنا في هذا العالم الناهض مفاتيح فرج كثيرة . وانا ادعو لذلك الى مساهمتنا في حركة نهرو لخلق جبهة آسيوية مساهمة فعالة ومتواضعة في آن واحد . وقد سبق ان حصلت احاديث بيني وبين وكيل وزارة الخارجية الهندية في باريس ، السر غرجا باجباي ، بشأن تقوية العلاقات الاقتصادية بين العالمين العربي والهندي . وأتيت في سياق الحديث على ذكر اعطائنا اياهم امتيازات بترولية لقاء تعاون بعيد بيننا وبينهم . فأجاب انهم الآن ليس لديهم اختصاصيون كافون لهذا العمل ، لكنهم يفكرون به على كل حال .

وعلى الرغم من ان الدولة الهندية واعية ان امامها مشاكل عديدة قد تستغرق معالجتها سنوات بحيث ان الهند ستنكب على معالجة قضاياها الداخلية وبناء اقتصادياتها وصناعتها طيلة العقد القادم – ونهرو نفسه قد صرح سراً بأن بداية اكتمال تصنيع الهند تقتضي على

الاقل سبع او ثماني سنوات – فعلينا مع هذا ان نتطلع اكثر فأكثر الى التعاون الاقتصادي مع الهند . واذا كنا سنواجه خياراً بين اعطاء امتيازات بترولية او سواها الى شركات اميركية دون ان نستفيد سياسياً او سلاحياً من اميركا او غيرها من بلدان الغرب ، من جهة ، وبين اعطاء امتيازات الى شركات هندية تضمن بعض الاستفادة السياسية والسلاحية ، فأنا افضل النهج الثاني حتى ولو كان داخل الامتيازات اذا اعطيت للهند اقل الى حد ما من دخلها اذا اعطيت لأميركا .

وبكلمة اخرى ، انا ادعو الى التعاون الوثيق المتزايد مع النهضات الآسيوية ، وخصوصاً النهضة الهندية ، في شطريها الهندوسي والباكستاني ، وفي هذا التعاون ، علينا ان نكون متواضعين الى حد بعيد ، مساهمين بقدر ما لنا من وزن ، راضين بمركز متواضع في التفاعل والتضامن المرموقين . وبهذا الصدد اود ان اشير الى زاوية من زوايا علاقاتنا الخارجية بالدول الشرقية ، يجدر بنا اعتماد الارتفاع والتنازل وسعة الصدر فيها : اقصد بذلك التعاون ضمن الامم المتحدة . لقد لمست اتجاهاً من قبل الدول العربية نحو الاستئثار بالمراكز المفتوحة في الامم المتحدة للدول الشرقية . واخشى ان يولد هذا الاستئثار شيئاً من النفور او الحسد . وعلى سبيل التمثيل اذكر المنافسة التي قامت في العام الماضي بين تركيا ومصر حول عضوية مجلس الامن . ان هذه المنافسة قد تركت اثراً سيئاً في الذهنية التركية ، وكان

من الافضل، في نظري، ان تتنازل الدول العربية عن ذلك المركز لتركيا فتكسب ثقتها، بدلاً من ان تستأثر بالمركز فتكسب خصومتها. وانا ارى على العموم انه لا يضيرنا قط ان تمثلنا في بعض مراكز الامم المتحدة بعض الدول الآسيوية الفتية، بدلاً من ان نصر على ان تمثلنا دائماً في تلك المراكز دولة عربية، فنخسر ثقة الدول الشرقية ومناصرتها دون ان نستفيد فائدة كبرى موازية من جراء استئثارنا بمركز او مراكز في المنظمة الدولية. واني اعتقد ان أحد اسباب هبوط اسهم الدول العربية في الامم المتحدة كان تكتل دول الجامعة تكتلاً بارزاً مغلقاً مستأثراً لا مكان فيه للاتضاع او التعاون الصافي المتنازل مع الدول الشرقية. ولعل للدول العربية في هذا الموقف بعض العذر، نظرا لأن قضية فلسطين كانت محور عملها في الامم المتحدة، وكانت تضطرها بالطبع الى التكتل القوي. بيد ان هذا الموقف قد ولد شيئاً من الحسد والنفور لدى الدول الشرقية ويجدر تغييره. واذا شئنا ان نتعاون مع الدول الشرقية تعاوناً صادقاً، فعلينا ان نزيل سوء الظن هذا والاستئثار، ونظهر روحاً تعاونية متواضعة متنازلة.

خامساً: الحذر من الارتماء الأعمى في فخ اغراءات المشاريع الانشائية الاميركية، الى ان تثبت اميركا بالفعل حسن نيتها نحونا، واستقلالها عن اليهود ونفوذهم في اوساطها الرسمية، وعن المفعول الاوتوماتيكي لجهازها السياسي الذي يجعلها مطية

للرغبات الصهيونية.

واني ارى - ورأيي هذا مستند الى آراء الكثيرين من محبّي العرب حتى في اميركا نفسها - ان مثل هذه المشاريع، ولئن تكن في الظاهر سبيلاً لتنمية الموارد العربية وتأمين التقدم العمراني الاقتصادي العربي، فهي بالحقيقة تثبت اركان اسرائيل وترسخ كيانها الاقتصادي جاعلة منه قاعدة اقتصاديات الشرق الادنى، وتساهم في بسط النفوذ الاقتصادي الصهيوني على العالم العربي بكامله.

ان الخطر من المشاريع الانشائية المشار اليها موجود بالفعل. وان الحذر منه ضروري كل الضرورة. وقد سمعت من مصادر عدة، صديقة وموالية وعدوة للعالم العربي، ان الحكام العرب سيقعون في هذا الفخ حتماً. وذلك لعمري شر بلية نقع فيها طواعية واختياراً، ونستسلم لها من تلقاء انفسنا. لذلك فاني احذر من الوقوع في هذا الخطر، وانا ضد المسؤولين ان لا يقبلوا بأي من هذه المشاريع، مهما كان لونها ومصدرها ومهما كانت غاياتها الظاهرة، قبل ان يمحصوها تمام التمحيص، ويطمئنوا الى سلامتها وصفاء اغراضها، لاسيما بالنسبة للسباق الطويل، وقبل ان تكتمل لديهم القناعة بأنها لن تؤدي في نتائجها القريبة او البعيدة الى خدمة مقاصد اسرائيل واغراضها ومصالحها. وأشير بصورة خاصة في هذا المقام الى مشروع الاردن، ومشروع الليطاني، ومشروع تنمية العالم العربي

بواسطة اخصائيين ترسلهم اسرائيل، تلك المشاريع الملأى بالمخاطر .

ولكني، من الجهة الثانية، اعيد الاشارة الى ما سبق لي قوله، من اني لا اعتقد بإمكان استمرار سيطرة ثلاثة بالمائة من سكان اميركا (اعني يهودها) على السبعة والتسعين بالمائة الآخرين، لمدة طويلة وبشكل متزايد، دون تيقظ القوى والوجدان والوعي الاميركي المخلصة، واني لا استبعد ان يأتي يوم يتنبه فيه الاميركيون فينفضوا عن انفسهم السيطرة اليهودية الطاغية حالياً. وثمة بعض الدلائل على احتمال حصول هذه الامكانات، بل على بدء حصول هذا التنبه. وحين يحدث كل هذا - اي حين يعي الاميركيون مدى سيطرة اليهود عليهم، وينتبهون الى ان شؤونهم الداخلية وسياستهم الخارجية مسيطر عليها يهودياً الى حد يجعل النفوذ الاميركي في الشرق الادنى مسخراً بكامله لمصلحة اسرائيل وحدها - حين يحدث كل هذا، فقد ينفتح مجال لنشوء شركات اميركية تستثمر اموالاً اميركية خالصة (متحررة من النفوذ اليهودي) في العالم العربي لمصالحها هي ومصالح العالم العربي المتبادلة .

وهذه الامكانيات لاستثمار رؤوس اموال اميركية مستقلة عن النفوذ الصهيوني، في العالم العربي، يجدر بنا ان نفتح لها مجالاً واسعاً، لأنها سليمة ولا خطر منها. وبالطبع، ان اليهود سيحاربون مثل هذه المشاريع، حين تقوم، ويدوسون عليها، ويستعملون

كل ما لديهم من نفوذ لخنقها والقضاء عليها في مهدها، او لتحويلها لخدمة مصالحهم هم بالتغلغل فيها والسيطرة عليها من الداخل. لكن هذا بعينه جزء من الصراع الذي سيقوم بين الثلاثة بالمائة والسبعة والتسعين بالمائة في اميركا ونحن نبني كل خطوط أملنا بتحرر الوعي الاميركي الصادق الصافي من النفوذ الصهيوني، على المبدأ القائل ان الثلاثة بالمائة لن تستطيع ان تسيطر دائما على السبعة والتسعين بالمائة، دون تنبه الاكثرية الاخيرة لهذه السيطرة وتنكرها لها وانتفاضها للتخلص منها .

كل ما اقصد قوله في هذا الاستدراك، هو ان الاميركيين قد لا يظلون جميعهم راضين دائماً بأن ينمو الشرق الادنى بكامله ويرقى بواسطة اليهود او من خلال مصالح اسرائيل، وانه، في حالة حصول تنبه بعضهم، واكتمال النية لدى هذا البعض لإقامة تعاون عربي اميركي لا اثر فيه للنفوذ الصهيوني ولا يتم من خلال اسرائيل، فعندئذ من الخير ان لا نحفل من المشاريع التي ستقدم لنا .

وبكلمة اخرى: ان مشاريع التنمية والانشاء، الصادرة عن اميركا الرسمية، او عن الاوساط الاميركية الخاضعة للنفوذ الصهيوني، لخطرة علينا ولو بدت في الظاهر مؤدية الى خيرنا ورقينا، ومن الحكمة ان نحذرها ونتجنب الوقوع في شركها. اما مشاريع التنمية والانشاء التي قد تصدر عن اوساط اميركية خاصة غير

رسمية مستقلة عن النفوذ الصهيوني راغبة في التحرر منه وتجنبه، والتي تهدف الى التعاون الصادق والخدمة المتبادلة بين الرساميل والخبرة الاميركية والموارد العربية، فيجدر بنا ان نرحب بها ونستفيد منها.

٢١. مجابهة اسرائيل

اذا اعتزم العالم العربي تبديل اوضاعه بإحداث انقلابات تحررية اصلاحية جوهرية في الحقل الداخلي، وبانتهاج سياسة خارجية رشيدة، حسب الخطوط التي رسمتها في ما مر: اي اذا اطلق حرية الفكر والنظر فحفز نشاطاً روحياً عقلياً خلاقاً صاخباً، واذا وحد كلمته وجدد جامعته في حلف عسكري اقتصادي منيع وفي اتفاقات خاصة بين مجاميع اعضائه تقوي الحلف العام وتسانده، واذا عني بقوته العسكرية، فأعد جيوشاً قادرة على الذود عن حدوده ومصالحه، واذا قامت فيه نهضات اصلاحية تناولت أسس حياته وأوجدت تبدلاً ملحوظاً بارزاً في نظمه - واذا تفاعل هذا العالم العربي المتجدد مع الخارج تفاعلاً بصيراً، يعرف حلفاءه فيتعاونون معهم ويدرك مواطن الخطر على مصالحه فيتجنب منزلقاتها: فلبى التحدي الروسي بإجراء الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية دون ان يرتمي في احضان السياسة الروسية، ولمس امكانية محالفة غربي اوروبا له فعزز

اسبابها، وادرك فعالية الكنيسة الكاثوليكية خاصة، والقوى المسيحية عامة، فتعاون معها تعاونا سمحاً، ونفذ الى اعماق مشاريع التنمية الاميركية المغربية، واكتشف نواياها ومآربها وميّز بين تلك المشاريع الصادرة عن اميركا الرسمية او الاوساط الاميركية الخاضعة للنفوذ الصهيوني، فحذرها، وبين تلك المشاريع التي قد تصدر عن اوساط اميركية متحررة من اليهود، تبغي التعاون معه تعاوناً صادقاً، فرحب بها: اقول، اذا فعل العالم العربي كل ذلك، او بعضه، فأنا اعتقد ان مشكلة اسرائيل تصبح عندئذ ابسط المشاكل وتحل نفسها بنفسها. اذ ان العالم العربي الناهض يصبح عندئذ قادراً على ضبط الوضع، سيداً له، ويبطل عندئذ كون اسرائيل تلك العقدة المكبلة ايدينا الآن. حل مشكلة اسرائيل حلاً اخيراً، اذن، يتوقف على ما ذكرناه في ما مر من عمل عربي حاسم في العالم العربي نفسه، اكثر من توقفه على مجابهة وجهية Frontal Attack مباشرة. لكن مثل هذه المجابهة الوجهية المباشرة بيننا وبين اسرائيل لا بد ان تحصل وتستمر من الآن حتى إتمام هذه الشروط.

واذن، فأثناء اتمام هذه الشروط، والى ان تتم، توجد امام العالم العربي، منطقياً، امكانيات عامة ثلاث. اقول «امكانيات عامة» لا لأني اعتقد ان كلاً منها ممكن، او انها كلها ممكنة الى درجة واحدة من الامكان، بل لأنها هي المجالات المنطقية الوحيدة

المفتوحة امام عقدة كالعقدة العربية الاسرئيلية او من طرازها:

اولاً: امكانية القضاء على اسرائيل واليهود قضاء تاماً. هذه الامكانية - واحسن تعبير عنها هو القول الشعبي: «كب اليهود في البحر» - هي الطرف الاقصى في اتجاه التفاؤل العربي.

وانا لا اعتقد ان هذه «الامكانية» ممكنة على الاطلاق الآن، وبالطبع لا ارى لحدوثها اي احتمال.

ثانياً: وعلى الطرف الاقصى المعاكس، توجد امكانية قضاء اسرائيل على كل مقاومة عربية، واكتساحها العالم العربي والسيطرة عليه سيطرة عسكرية سياسية تامة. وهذه «الامكانية» في نظري لا تفوق الاولى امكاناً او احتمالاً في الوقت الحاضر: لا لأن الطموح الاسرائيلي لا يبلغ حدها، ولا لأن القوة العربية والتضامن العربي مكتملان بحيث يكفلان عدم حدوثها، بل فقط لبعض الاعتبارات والعوامل الطبيعية الخارجية اللاانسانية، واهمها ضآلة عدد اليهود المقيمين حالياً في اسرائيل او الممكن وجودهم هنا، بالنسبة لعدد العرب في الدول المحيطة بإسرائيل، فأنا لا اعتقد ان اليهود سيبلغون المليونين، من الآن حتى عشر سنوات، وقد يكون هذا التقدير نفسه مبالغاً فيه. ومليونا يهودي لا يستطيعون بحال من الاحوال السيطرة العسكرية على العالم العربي والاستقرار فيه بحيث تدوم هذه السيطرة لمدة طويلة وتغدو مستتبة راسخة.

ولذلك، فلمدى السيطرة والاتساع والانتشار اليهودية في العالم العربي، من حيث الاكتساح العسكري السياسي، حدود متأتية، في النهاية، عن العوامل الطبيعية العددية المرافقة استيطان اليهود في إسرائيل، بالقياس الى عدد العرب ومعدل تزايدهم والى شسوع اراضيهم.

لست غافلاً عن الاسباب التخفيفية العديدة لأثر هذا العامل الطبيعي المحدد لقدرة اسرائيل. فأنا أعي تمام الوعي التباين بين المجتمع اليهودي والمجتمعات العربية من نسبة فعالية الطبقات والفئات المختلفة في كل من المجتمعين: اي انه اذا كان الاطفال والنساء والشيوخ، والكثيرون من الرجال الذين هم في متوسط العمر لكنهم محرومون من كل اسباب العمران او النشاط او الاندفاع الوطني لاسيما من طبقات العمال والفلاحين، اذا كان كل هؤلاء في العالم العربي يكونون في الصراع مع اسرائيل قيمة عددية كمية فحسب، ولا فعلاً جوهرياً لهم، فإن الحال في اسرائيل على العكس: اذ ان نساء اسرائيل ورجالها، حتى في سنيهم المبكرة وسنيهم المتأخرة من العمر يساهمون في المجهود السلمي والحربي الاسرائيليين مساهمة جدية، وليسوا بالتالي كميات مهملة في المجتمع الاسرائيلي، وليس بينهم طبقات عمالية او قروية محرومة، بل لعل عمال اسرائيل ومزارعيها هم اكثر الاسرائيليين همة ونشاطاً وفعالية. هذا هو احد العوامل التخفيفية في اثر

العامل العددي في الحد من قوة اسرائيل. وثمة عامل آخر هو عامل الفعالية الذاتية للشخص الاسرائيلي الواحد، بالقياس الى الفاعلية الذاتية للشخص العربي الواحد: فان للشخص اليهودي العادي من الفعالية ما يفوق فعالية الشخص العربي العادي. يضاف الى ذلك تنظيم اليهود، بالمقارنة بعدم التنظيم العربي: وكذلك التقدم التكتيكي اليهودي واستخدام اليهود لاحدث الوسائل الحضارية التكتيكية، وقدرتهم بالتالي على التوصل الى ما لا يستطيع العدد المتفوق من العرب التوصل اليه دون حصول تقدم تكتيكي وحضاري مماثل. لهذه العوامل كلها، قد تكون فعالية مليوني يهودي أبلغ اثراً ووزناً من فعالية ملايين من العرب.

لكن لكل هذه العوامل التخفيفية معاً حدودها. وتظل ضآلة العدد اليهودي عقبة كأداء تحول دون سيطرتهم التامة على العالم العربي، وتظل قدرة اليهود على الانتشار في العالم العربي والاستقرار فيه، اللازمة لاستتباب سيطرتهم عليه، محدودة جداً. اذ ان ثمة حداً ادنى يجب توافره حتى تصبح كل هذه العوامل التخفيفية قادرة على ابطال مفعول الضآلة العددية، وهذا الحد لا تبلغه اسرائيل الآن ولا تستطيع ان تبلغه عددياً في عشرات السنين: اي ان أمام العالم العربي فترة سمحة من الزمن لاستكمال استعداده للمجابهة الفاصلة.

وعلى الرغم من كل هذا، فلزام علي ان اقول ان اتكالنا يجب الا يكون على هذا العامل الطبيعي

اللاانساني الخارجي، لاسيما وان اتكال الشعوب العربية قد كان، حتى محنة فلسطين، يكاد يكون كله ملقياً على الكمية العددية والمناداة بأن «الاربعين مليوناً» من العرب لن يقهروا. واذا صح القول ان اتكالنا على مثل هذه الاعتبارات هو من أبلغ الاخطار الكيانية التي نواجهها، فإنه ليصح أيضاً أن يقال انه من مآسينا البالغة ان عامل اطمئناننا الاقوى الى عجز اليهود أخيراً عن سحقنا هو ضآلة عدد اليهود أنفسهم.

ومع ان الاكتساح العسكري والسيطرة السياسية اليهودية على العالم العربي محدودة بالنسبة لضآلة عدد اليهود، فهذا لا يعني ان الاكتساح والسيطرة الاقتصادية محدودة الى النسبة عينها، وللسبب نفسه. وان الخطر الاكبر المباشر ليس في المقام الاول من اكتساح اليهود العسكري وسيطرتهم السياسية بقدر ما هو من سيطرتهم الاقتصادية. وهذا الخطر حقيقي جداً. وهو يعبّد السبيل الى الاكتساح العسكري السياسي في المستقبل. ولنا في تعاقد شركات اسرائيلية مع شركة فورد الاميركية لتكون الاولى ممثلة الثانية في الشرق الادنى كله ومركز توزيع منتجاتها، وفي استعداد اليهود وعملهم ليل نهار ليكونوا رأس الجسر في استخدام «النقطة الرابعة» من مشروع ترومان لتنميتهم هم لموارد الشرق الادنى - لنا في هاتين الظاهرتين دليل على مدى الخطر الاقتصادي المحدق بنا. هذه «الامكانية» الثانية، اذن، ليست ممكنة، وبالطبع ليست محتملة:

اي ان قدرة اليهود على افناء العالم العربي او السيطرة عليه سيطرة مستتبة تحدها في الاساس ضآلة العدد اليهودي دون الحد الادنى اللازم لمثل هذا الاكتساح .

فإذا كانت هاتان «الامكانيتان» المتطرفتان، قضاء العرب على اسرائيل وقضاء اسرائيل على العرب، غير ممكنتين، تبقى هناك امكانية واحدة قائمة اثناء اتمام شروط النهضة العربية والى ان تتم هذه الشروط . أعني وجود العرب واليهود في حالة جوار، ومجابهة احدهما الآخر . هذه هي الامكانية التي ستحصل حتماً الآن الى ان تتوافر للعالم العربي القدرة على تصفية مسألة اسرائيل تصفية يكون العالم العربي فيها هو المقرر الاخير والسيد . وهذه الامكانية بدورها قد تتخذ اشكالاً ثلاثة، من حيث نوع المجابهة العربية الصهيونية التي تتم فيها . والعالم العربي بحد نفسه اذن امام مواقف مباشرة ثلاثة ممكنة من اسرائيل، عليه ان يختار احدها . وللوضع في الشرق الادنى اذن، من الآن حتى يتم تجديد العالم العربي، امكانات ثلاثة . ويتوقف حدوث اي من هذه الامكانات على اختيار وقرار عربيين مسؤولين . ومن اللازم ان يعي حكام العرب وقادتهم كل النتائج المتأتية عن اي من هذه القرارات قبل ان يختاروا اياً من المواقف الثلاثة المعروضة أمامهم .

وبالطبع، ان هذه المواقف هي اما التعاون التام مع اسرائيل، او مقاطعة اسرائيل مقاطعة تامة، او الاعتراف الجزئي بها والتفاعل الجزئي معها .

أولاً: اما التعاون التام بين العالم العربي واسرائيل فمعناه ان ينسى العرب كل ما جرى، ويعانقوا اسرائيل ويدخلوا معها في علاقات ودية على اعتبارها دولة من دول الشرق الاوسط، ويتعاونوا معها كما يتعاونون مع تركيا وايران واليونان، ويفتحوا لها اسواقهم ويصدروا اليها ما تحتاجه من مواد وأغذية، ويرحبوا بفنييها ورؤوس أموالها تنمي وتستثمر مواردهم، ويتيحوا لابنائها التجوال والسياحة، والمتاجرة في أراضيهم ويتجولون هم ويسوحون ويتاجرون فيها .

هذه الامكانية قليلة الاحتمال والخير . اما انها قليلة الاحتمال، فلأن اسرائيل هي التي أنزلت الحيف بالبلدان العربية، والبلدان العربية لن تنسى ذلك، وسيظل في صلف اسرائيل وكبريائها واعتدادها وتأهبها للامتداد مذكر لنا بالحيف الماضي وبالخطر المقبل . واما انها امكانية لا خير من ورائها على الاطلاق، بل الشر كل الشر فيها، فلأن مطامح اليهود، كما سبق وذكرنا، تتعدى الرقعة التي حلوا فيها فاحتلوا ولأن طبيعة الحركة الصهيونية الوثابة تأبى التوقف عند حدود اسرائيل بل تتحفز دائماً لتخطيها، ولأن كل تعاون اسرائيلي-عربي انما هو بالحقيقة مهادنة موقتة يستفيد منها اليهود ليوطدوا اقدامهم في اسرائيل وليقووا على التوسع في ما بعد .

ان الكثير من الاوساط الاجنبية المراقبة، التي تنفذ الى أبعد من القشور، لا تزال ترى، على الرغم من قيام

اسرائيل والاعتراف الدولي، بها، ان بقاء اسرائيل متوقف وسيظل متوقفاً على رضى العرب عن بقائها – اي على اعتراف العرب بها وتفاعلهم معها تفاعلاً تعاونياً ولو جزئياً. وبهذه المناسبة اذكر ان احد ممثلي بنك التصدير والتوريد الدولي حدثني قبيل ذهابه الى فلسطين لدرس امكانية اعطاء قرض لإسرائيل، واسر إلي بصراحة ان البنك يدرك ان تركيب اسرائيل الاقتصادي محتم الانهيار ما دامت في معزل عن التعاون مع الاطار العربي المحيط بها. ان هذه الحقيقة لتحمل المسؤولين في العالم العربي مسؤولية كبرى حول مصير العرب ومصير اسرائيل.

ان تعاون العرب غير المشروط مع اسرائيل لبمثابة استسلام عربي سابقي، دون قيد او شرط، للسيطرة اليهودية، وتعبيد لها.

ثانياً: واما مقاطعة اسرائيل مقاطعة تامة فمعناها مقاطعتهم في جميع حقول الحياة: معناها عدم الاعتراف بهم سياسياً ودولياً، وعدم التفاعل معهم اجتماعياً، وعدم التبادل معهم، بيعاً او شراء، اقتصادياً، وعدم السماح بالانتقال من اسرائيل الى البلدان العربية او بالعكس. ولقد ذكرت هذا مراراً في رسائلي السابقة الى الحكومة الجليلة. ولا ازال عند اعتقادي، الذي صرحت به مراراً في تلك الرسائل، ان هذه المقطاعة، لاسيما الاقتصادية، اذا نظمت تنظيما مسؤولاً، ونجحت حتى ثمانين بالمائة من النجاح

فقط، تقضي على الدولة اليهودية في سنوات قلائل، فتنهار هذه من تلقاء نفسها.

ان لم يستطع العرب القضاء على اسرائيل ايجابياً في الجولة الاولى من الصراع، والى ان تتوافر لهم القوة – بفضل الاجراءات الداخلية والخارجية المرجوة – الى القضاء عليها في جولات لاحقة ستحتمها طبيعتها الوثابة العدائية، فإنهم ليستطيعون القضاء عليها سلبياً بواسطة سياسة الحجر والمقاطعة التامة.

ولست بغافل عن امكانية حدوث رد فعل قوي من جانب اسرائيل، اما للحؤول دون هذه المقاطعة او للتغلب عليها وابطال مفعولها. وهناك اخطار حقيقية تتمثل في ردود الفعل اليهودية الممكنة: اذ ان هذه المقاطعة بمقدار ما ستضبط وتنجح، بذلك المقدار عينه ستحفز الجانب اليهودي الى محاربتها بعنف. فقد تلجأ اسرائيل الى المنظمة الدولية، وتعمد الى الاحتجاج على هذه المقاطعة معتبرة اياها عامل تهديد للامن والسلم، وتلقى في اوساط تلك المنظمة آذاناً صاغية ورغبة في احداث ضغط على الدول العربية، ولزام على الدول العربية ان تستعد لا لرد الاتهامات الاسرائيلية فحسب، بل لعدم التأثر بالضغط الدولي. وقد تلجأ اسرائيل الى العدوان المسلح، بحجة ان هذه المقاطعة تشكل بنفسها عدوانا على اسرائيل، وان الدول العربية كانت هي البادئة بالعدوان. بل قد ترحب اسرائيل باعلان المقاطعة ذريعة لاعادة كرة عدوانها.

وقد يكون هذا العدوان خطراً بالفعل، لاسيما اذا تم على اساس استفراد الدول العربية ومنازلة جيوشها فرادى، حيث يسهل عليها التغلب والظفر، كما حدث بعد الهدنة في العام الماضي. فعلى الدول العربية ان تحسب حساب ردود الفعل هذه لدى تقريرها القيام بمقاطعة اسرائيل مقاطعة جدية، وعليها ان تعتزم بصدق ان تتعاون معاً الى أبعد حدود التعاون، ان في تنفيذ المقاطعة او في رد العدوان المتوقع. لكن ثمة خطراً على هذه المقاطعة أشد من خطر ردود الفعل اليهودية: هو خطر اعلان هذه المقاطعة وفشلها من الداخل، اي فشلها من الجانب العربي نفسه. وهذا الخطر – الذي يمثل الى الذهن كلما ذكرنا قرارات المقاطعة السابقة التي أعلنت ولم تنفذ تنفيذاً فعالاً – قد يتأتى عن تجارية تجار القاهرة والاسكندرية وبورت سعيد وعمان وبيروت والشام وحلب، وعدم حزم الحكومات العربية في ردعهم عن التعاون مع اسرائيل، او عن ابتكار اليهود مختلف الاساليب للاتجار المداور مع العالم العربي بمساعدة بعض عملائهم العرب (كما فعلوا في الماضي يوم كانوا يطلقون على مصنوعاتهم اسماء عربية ويطبعون على بطاقاتها «صنع في لبنان» مثلاً)، او عن انفراد احدى الحكومات العربية بالاعتراف باسرائيل والقبول بالتفاعل معها.

على الحكومات العربية ان تكون يقظة، وان لا تحسب حساب رد الفعل اليهودي فقط، بل ان تتحفظ

لامكانيات ابطال مفعول المقاطعة من الداخل اي من الجانب العربي نفسه.

ثالثاً: وثمة، اخيراً، امكانية هي مزيج من الامكانيتين الاخيرتين، اعني بها امكانية الاعتراف والتفاعل الجزئيين. هذا الموقف – الذي قد يروق للبعض ان ينعتوه «بالموقف الاعتدالي»، او «الايجابي» وان يبرروه بالاستناد الى ما يسمونه «واقعية سياسية» او «وجهة نظر عملية» – سيعرض امام الرأي العام العربي في السنوات القليلة القادمة، وسيلوّح به امام الشعوب العربية كأنه هو المصير الذي لا مفر منه، وهو الموقف الاكثر اعتدالاً وتعقلاً وخيراً للبلدان العربية. وقد تجد هذه الدعوة لنفسها في الاوساط الشعبية – اذا يئست هذه من امكانية الاصلاح واقتنعت باستحالة حدوثه – آذاناً صاغية، كما وقد تجد في بعض الاوساط الرسمية شيئاً من التأييد ولئن بدا في البدء متردداً. وشر ما في هذه الامكانية انها ستعرض اقساطاً، بحيث يبدأ عارضوها في المراحل الاولى بالدعوة الى اعتراف جزئي او تفاعل محدود والادعاء بأن هذا شرط لاكتفاء اسرائيل وتوقفها عن التأهب للعدوان، ثم يتقدمون في المراحل التالية الى المطالبة باعتراف أكمل وبتفاعل اوسع واشمل. واخشى ان يراوح التفاعل مع اسرائيل، من حيث البلدان العربية المتفاعلة ومن حيث حقول التفاعل، بين درجات متباينة.

اني اعتقد انه ستتسرب الى الاوساط العربية المفكرة

خطوط جديدة من التفكير السياسي (لاسيما اذا لم يبد اي اعتزام عربي مسؤول اصيل على معالجة الوضع العربي العام بالاصلاح الجوهري) تدعو الى هذا الموقف، اعني موقف الاعتراف والتفاعل الجزئيين، وتصور هدف هذا الموقف بأنه وضع اليهود في محلهم، وتأمين شرهم، والاستفادة منهم استفادة سلبية وايجابية: اي الاستفادة منهم على اعتبارهم، بمحض خطرهم المحدق، حافزاً خارجياً مستمراً لنا لننشد الاصلاح ونسعى لتقوية انفسنا من الجهة الواحدة، وعاملاً فعالاً جديداً لانماء موارد الشرق الاوسط بتكتيكهم ومالهم، مما يعود بالخير على اليهود والعرب على السواء، من الجهة الاخرى.

وسيكون الدفاع الرئيسي عن هذا الموقف هو الحجة التالية: بما انه قد سبق لبعض الاوساط العربية، ومن جملتها اللبنانية، ان أقلعت عن السلبية التامة في تحديد موقفها من الصهيونية، وماشت تطور الاوضاع في فلسطين من منتصف العقد الرابع من هذا القرن، فتنازلت عن تشبثاتها السابقة ورضيت بمبدأ «الكانتونات» في فلسطين، وبقيام «كانتونات» يهودية، ولم تخش شر هذه الادارات اليهودية، لانها، نظراً لقيامها ضمن اطار فلسطين الاوسع منها، ستظل موضوعة في محلها، محدودة الخطر، مؤمنة الشر، وستلعب دورها في الحياة والرقي الفلسطينيين – فكذلك اليوم، وقد حصلت تطورات في الوضع

الفلسطيني لا يسعنا الا الاعتراف بحدوثها والاقرار بأنها أمر واقع مفعول، فعلينا ان نماشي هذا التطور، وننظر الى اسرائيل بكاملها ككانتون يهودي قائم لا ضمن اطار فلسطين الضيق، بل ضمن اطار العالم العربي الاوسع، وككانتون يصح القول عنه، استناداً الى المبدأ الذي سبق ذكره، انه موضوع في محله، محدود الخطر، مؤمن الشر، يلعب دوره في الحياة والرقي العربيين.

بقطع النظر عما يبدو في هذا الموقف من اعتدال وايجابية وواقعية عملية، وبقطع النظر عن القالب او القوالب التي يمكن ان يتجسد هذا الموقف فيها، فإني أقول هنا من وجهة نظر مبدئية ومن حيث المصير العام الاخير للعالم العربي، ان هذا الموقف، اذ يدعو الى الاعتراف والتفاعل الجزئيين، سيؤدي الى انزلاق العالم العربي، عاجلاً او آجلاً، الى تسجيل اعتراف دولي حقوقي بإسرائيل، مما يجعل من الصعب جداً في المستقبل نقض هذا الاعتراف. اي ان هذا الموقف لينقل الاعتراف العربي بإسرائيل من اعتراف واقعي بقوة عسكرية ظافرة، الى الاعتراف الحقوقي بمشروعية وضع قائم – لاسيما وان اسرائيل تصر على ان يكون وضع وتوقيع اتفاقية السلم معها شرطاً أولياً سابقاً لقيام اي تفاعل جوهري معها. ولعل هذا الموقف يستند، واعياً أم غير واع، الى اعتقاد بأن قيام اسرائيل وبقاءها قد اصبحا امرين واقعين غير قابلين للتغيير.

وفضلاً عن هذا الاعتراض المبدئي، هناك اعتراض

واقعي عملي، يقوم على اساس الواقعية عينها التي تقوم عليها الدعوة نفسها: وهو ان الاعتراف والتفاعل الجزئيين، ولو بدوا غير خطرين، يشكلان مزلقاً الى اخطار اوسع منهما مدى. فلا يلبث العالم العربي ان يفتح مجالاً جديداً للتفاعل، حتى يجد نفسه بعد حين مضطراً او راغباً بفتح مجال آخر. والتفاعل اذن لا يمكن ان يكون محصوراً جامداً، بل لا بد له ان يتسع وينمو نمواً متزايداً. ومن البديهي ان التفاعل بين طرفين، لا يربطهما معاً سوى التقارب الجغرافي والمتاخمة في الحدود ولا يشتركان مطلقاً في المفاهيم او المطامح او الاماني، ان هذا التفاعل لا يمكنه ان يصبح تفاعلاً تعاونياً صادقاً، بل هو منذ البدء وسيبقى كذلك تفاعل عداء مبطن ومشادة. وما دام احد الطرفين وثاباً في طبيعته، نزاعاً نحو الاتساع، طموحاً، والآخر متقلصاً متراجعاً، فإن هذا التفاعل سيكون، من لحظة ابتدائه، انتصاراً للطرف الاول واستسلاماً من قبل الطرف الثاني، وسيحمل في ثناياه منذ البدء بذور الحيف للفريق الاقل طموحاً ووثابية.

هذه هي المواقف الثلاثة التي يقفها العالم العربي والامكانيات التي قد تحصل في السنوات القادمة. وهي تتفاوت في مدى وجوبها وخيرها او خطرها وشرها تفاوتاً بعيداً. اما احتمالها، وحصولها، فمنوطان بالدرجة الاخيرة بالارادة العربية. وما سيحصل من هذه الامكانيات هو بالضبط ما يتوجب على السياسة العربية

تعيينه وتقريره. ان ما يقرره حكام العرب وقادتهم اليوم وفي الاشهر القادمة، هو بالضبط ما سيقوم بين العالم العربي واسرائيل من تعاون تام او مقاطعة تامة او اعتراف وتفاعل جزئيين في السنوات القادمة. وهذا التقرير هو عينه وظيفة السياسة العربية، والمسؤولية التاريخية للحكام الحاضرين.

كنا حتى الآن نتحدث عن الامكانيات المنطقية المختلفة، والمواقف الممكنة التي قد تواجه العالم العربي، من حيث علاقته باسرائيل. وكنا، في هذا التصوير للامكانيات المشار اليها، نتحدث كأن الوضع كله لا يعمل فيه سوى عنصرين اثنين فقط: العنصر العربي والعنصر الاسرائيلي. اي اننا جردنا الوضع في العالم العربي تجريداً تاماً عن اطار الوضع العالمي والقوى الفعالة فيه.

لكن الواقع هو ليس الى هذه الدرجة من البساطة والصفاء. والعلاقات العربية-الاسرائيلية لا تتجرد - كما وانها لم تتجرد في الماضي ولن تتجرد في المستقبل - عن الارادات والقوى الخارجية. فالشرق الادنى كان في كل اطوار تاريخه ولا يزال نقطة التقاء لمصالح اجنبية عديدة، وبالتالي مركز تدخل وتفاعل حميمين لقوى وارادات اجنبية فعالة. ولن يكون في المستقبل اقل اهمية للدول الاجنبية، او اقل اغراء لهم بالتدخل، مما كان في الماضي ومما هو في الحاضر. ولهذا، ففي سبيل استكمال البحث، وفي سبيل التكهن بإمكانية

اخرى محتملة جداً والتأهب لها قبل ان تحدث، سنتقدم الآن الى تكميل الصورة العامة، بأخذ القوى والارادات الاجنبية بعين الاعتبار.

ان العلاقات الممكن قيامها بين اسرائيل والعالم العربي غير مستقلة عن سياسات الدول الاجنبية، لاسيما بريطانيا وفرنسا واميركا في الدرجة الاولى، وروسيا في الدرجة الثانية.

وقد يحدث من جراء اشتباك هذه الارادات، لاسيما ارادات الدول الثلاث الاولى، بالوضع العربي الاسرائيلي في الشرق الادنى، امكانيات اكثر تعقيداً من الامكانيات المنطقية البسيطة التي عرضناها في ما مر.

ولنتصور ان الدول العربية الثلاث، بريطانيا وفرنسا واميركا - رغبة منها في تجميد الوضع الذي نشأ في الشرق الادنى حتى الآن بعض التجميد، اي في الابقاء على اسرائيل والابقاء على الدول العربية، ورغبة منها في الحد من خطر الحرب في الشرق الادنى في المستقبل - لنتصور ان هذه الدول تحدو بها هذه الرغبة، وتحدو بها أيضاً عوامل المحافظة على الارض المقدسة والمحافظة على مصالحها هي في الشرق الادنى، تقدمت بدعوة الى الفريقين العربي واليهودي غرضها وضع اسرائيل في محلها وابقاؤها فيه، وتأمين نمو الدول العربية ورقيها، وتقديم كفالتها الدولية المتضامنة للطرفين المتصارعين بالتدخل لدى حدوث اي اعتداء من احد الطرفين على الطرف الآخر. لا

استطيع التكهن بالضبط عن كيفية تقديم هذه الدعوة او عن الشكل الذي ستعرض فيها، او عن تفاصيل مقترحاتها. لكنني اتوقع ان تقدم الدول الغربية المشار اليها دعوة من هذا النوع، او دعوة شبيهة في الاغلب بهذه الدعوة. واتوقع أيضاً ان يتضمن الاقتراح الاخير الذي ستقدمه الدول الداعية نقاطاً ثلاثاً: أولها تعيين حدود اسرائيل تعييناً نهائياً، وثانيها المساهمة في تنمية موارد العالم العربي مباشرة، اي دون وساطة اليهود ودون تسرب نفوذهم، وثالثها الكفالة المتضامنة للحدود المتفق عليها، بحيث تتدخل هذه الدول الثلاث للدفاع عن حدود اي من الطرفين في حال الاعتداء عليها. اي ان هذا الاقتراح قد يكون بمثابة انشاء «لوكارنو» جديدة في الشرق الادنى، لمدة قد تبلغ الخمسة والعشرين عاماً.

اني أتوقع كل هذا، وعلى الرغم من انه ليس لدي اية معلومات بصدد مثل هذا الاقتراح، ولم يقم اي طرف دولي بجس نبضي رسمياً في ما يتعلق به، فقد حصلت احاديث غير رسمية عدة حول هذا الموضوع، وانني على اية حال أحس احساساً قوياً بأن مثل هذا العرض سيقدم حتماً. وأرى انه من الحكمة ان يقرر حكام العرب وقادتهم موقفهم منه قبل حدوثه، حتى لا يفاجئهم على غفلة.

وارى انه، مهما كان موقف الدول العربية من هذه الدعوة، فلزام عليه ان يكون موقفاً تضافرياً تجمع عليه

كلمتهم وار اداتهم بصدق .

وأرى أيضاً ان هذه الخطوط العامة لمثل هذا الاقتراح تكون اساساً صالحاً للبحث، ونقطة ابتداء للتداول، لا خطر منها، اذا توافرت الشروط التالية توافراً تاماً :

أولاً : لكي تكون هذه الاسس صالحة كنقطة ابتداء للبحث، ارى انه من اللازم ان يوضح منذ البدء ان الدول العربية لن توافق على اي اقتراح يحمل مباشرة او مداورة اي التزام باقامة علاقات اقتصادية وسياسية غير مشروطة مع اسرائيل . الحكمة البعيدة النظر تقتضي ان تظل ايدينا غير مكبلة بأي شكل من الاشكال في ما يمس كيفية ومدى علاقاتنا باسرائيل، لاسيما العلاقات الاقتصادية . ومهما تكن اخطار هذا الاقتراح، فانها تظل محدودة مقبولة ما دام حق الدول العربية بإعلان المقاطعة وتنفيذها، تاما غير منقوص .

ثانياً : في ما يتعلق بالحدود، ارى ان نقطة الابتداء الصالحة تكون في اعتماد الحدود الموضوعة في قرار التقسيم، الصادر في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، كحدود تقريبية اخيرة . وقد سبق وحصلت احاديث عدة بهذا الامر في لوزان وغير لوزان وقبل الجانب اليهودي بهذا الاساس للبحث، مع انه عاد وتراجع عنه .

ثالثاً : في ما يتعلق بإنماء العالم العربي وتقويته، ارى انه من الخير كل الخير ان نرحب بمثل هذه

المشاريع، اذا كنا واثقين من سلامتها سلامة تامة من الاثر اليهودي المباشر او المداور . اي اننا علينا ان نمحص هذه المشاريع تمحيصاً دقيقاً، تمحيصاً يتناول مصادر الاموال واشخاص الفنيين ونوع المشاريع، ويكمل لدينا القناعة باستقلالها في مصدرها كل الاستقلال عن الارادات الصهيونية، وباستقلال تنفيذها كل الاستقلال عن اسرائيل واقتصادياتها، بحيث لا تصبح هذه المشاريع – كما اشرنا في ما مر – وسيلة لاستقرار الاقتصاديات الاسرائيلية وبسط نفوذها في العالم العربي . ولقد سبق لي ان ميزت، بصدد مشاريع التنمية الاميركية، بين تلك المشاريع التي ستؤدي الى منفعة اسرائيل في الدرجة الاولى، وسيتم نفعها لنا من خلال نفعها لاسرائيل، من الجهة الواحدة، وبين تلك المشاريع المستقلة عن الارادة والمصالح الاسرائيلية، من الجهة الثانية – وحذرت من الاولى واوصيت بالترحيب بالثانية . وعلى هذا الاساس عينه، اقول الآن في صدد الاحتمال المعروض للبحث، ان المادة المتعلقة بتنمية البلدان العربية تكون نقطة صالحة للابتداء بالبحث، وعامل خير لنا قريب المدى وبعيده، اذا اكتملت لدينا القناعة بأن المشاريع التي تنطوي عليها، واسالب التنمية بكاملها، ستكون من الطراز الثاني – اي من نوع المشاريع والاساليب التي تضمن تنمية العالم العربي مباشرة ودون وساطة اسرائيل .

رابعاً : في ما يتعلق بالكفالة الدولية للحدود المتفق

عليها وبالتالي للوضع السياسي العسكري في الشرق الادنى (اعني في ما يتعلق بما اسميته «لوكارنو الشرق الادنى»)، ارى، في الدرجة الاولى، انه علينا، قبل الاطمئنان الى الاقتراح بكامله، التأكد مما اذا كانت النية في الكفالة نية صادقة فعلية، واذا كانت الكفالة كفالة فعالة قوية تضمن الحد من العدوان الصهيوني المترقب. اي انه علينا ان نتأكد ان الكفالة لن تكون سلاحاً ذا حد واحد، بحيث يضرب الكافلون على أيدي العرب إذا دافعوا عن انفسهم ضد عدوان اسرائيل، ويتملصون بذرائع مختلفة عن الضرب على أيدي اليهود، او من الضرب ضرباً فعالاً، اذا قاموا هم بعدوان. فإذا اطمأن حكامنا وقادتنا الى توافر الاخلاص في نية مقدمي الاقتراح والكفالة، والى صدق استعدادهم لكفالة حدود الطرفين المتصارعين ولإبقاء الوضع الراهن في شقتيه العربية واليهودية على السواء - اذا اطمأنوا الى ذلك، بقي عليهم ايضا ان يقرروا، بالنسبة الى المعلومات المتوافرة لديهم وغير المتوافرة لدي، عن قوة واستعداد الدول العربية نفسها، وعن قوة واستعداد اليهود، ما اذا كان العالم العربي اليوم يستطيع أو سيصبح قادراً بعد مدة قصيرة، من دفع عدوان اسرائيل. فإذا كانت معلوماتهم الواقعية والمسؤولة والصادقة تعطيهم القناعة الكافية بقدرتهم، الحالية او في المستقبل القريب، على دفع العدوان الاسرائيلي، فأنا ارى انه من الافضل ان لا نكبل ايدينا سابقاً

بالتزامات دولية لمدة طويلة. اذ في حالة عدوان اسرائيل - اسرائيل الديناميكية المتوثبة الهجومية - خير لنا ان تبقى ايدينا حرة غير مكبلة بأية اتفاقات دولية، خصوصاً اذا لم نكن متأكدين كل التأكد من ان هذه الاتفاقات لن تردعنا وتشل حركتنا وقت العدوان. اما اذا كان حكامنا وقادتنا يعرفون ان قوة اسرائيل من المناعة والازدياد بحيث لا نستطيع اليوم ولن نستطيع في بحر سنوات قلائل ان نردها او نكسرها، فمن الخير وبعد النظر عندئذ الرضى بكفالة دولية كهذه - اذا كانت صادقة فعالة - كوسيلة للدفاع عن الحدود والمصالح العربية في وجه التأهب الاسرائيلي الحثيث والطموح الاسرائيلي الوثاب، لاسيما وان هذه الكفالة الدولية لا تؤمن لنا اذذاك حلفاء وانصاراً اشداء في حالة العدوان الاسرائيلي وحسب (معطية ايانا بهذا التأمين فرصة استقرار واطمئنان كافية لإجراء الاصلاحات الداخلية وتوطيد علاقاتنا الخارجية)، بل ترفع ايضاً من معنويات الشعوب العربية وتحافظ في الوقت عينه على حرمتنا وسمعتنا الدوليتين.

اني ارى بصدد وضع اسرائيل في العالم العربي حقائق ثلاثاً أخيرة:

اولاها، ان العالم العربي لن ينام على الضيم، وقد وقع به ضيم في فلسطين.

والثانية، ان العالم العربي لن يتمكن من محق اليهود في فلسطين، واسرائيل لن تتمكن من محق العالم

العربي .

والثالثة ، ان طبيعة الحركة الصهيونية وثابة ، وعلاقتها بالعالم العربي محتم عليها ان تكون وان تظل دائماً وثابة كذلك . وهي لذلك ستنزع حتمياً وطبيعياً نحو احدى نتيجتين : اما اكتساح العالم العربي والسيطرة عليه ، او انكسارها هي و«كبّها في البحر» . مقضي على الصهيونية ، وقد استقرت في وسط العالم العربي ، ان تتغلب او تغلب ، ان تبقى بقاء السيطرة او تفنى . اما السلام بينها وبين محيطها العربي ، والتفاهم الصادق ، فلا امكان لقيامهما .

ان تاريخنا في المائة سنة القادمة هو بالضبط تفاعل هذه الحقائق الثلاث . اي ان هذه الحقائق الاخيرة هي مبادئ التاريخ العربي في القرن القادم .

الفصل السادس

مصير لبنان

٢٢ . لبنان والعالم العربي

مرادي الآن أن أتكلم عن لبنان بحد ذاته . فلبنان ذو ذات تقبل الكلام عنها براحة وفرح .

لبنان جزء لا يتجزأ من العالم العربي ، ولذلك فمصيره ليس مستقلاً عن مصير العالم العربي . فإن بسط اليهود سلطانهم على البلاد العربية واسسوا العصر اليهودي في الشرق الادنى ، فمن الوهم ان يظن اللبنانيون ان هذا السلطان لن يشملهم .

ولذلك كل ما قيل عن العالم العربي عامة في الفصول السابقة اقصد ان اقوله كذلك عن لبنان .

غير ان لبنان يجب ان يظل مستقلاً سياسياً تمام الاستقلال . فلبنان لا يحقق رسالته المتواضعة لنفسه وللعالم العربي ذاته وللعالم أجمع الا في حرية واستقلال سياسيين تامين .

لبنان الحر المستقل، المتفاعل في جميع حقول الحياة مع العالم العربي، الرابط مصيره بمصيره، المتضامن معه في كل شيء: هذا كيان يمكن الايمان به وتجب محبته وخدمته.

سيتزايد الضغط، السياسي والاقتصادي، لإذابة لبنان في سوريا. لكني ارجح ان لبنان، مدعوما بالقوى الايجابية التي تسنده، سيقف وسينتصر في وجه هذا الضغط.

اذا ادمج لبنان بسوريا وزالت معالم استقلاله، فلا اظن الدافع الحقيقي لهذا العمل حكمة عليا او محبة صادقة لخير العالم العربي وصالحه. فما هو الخير الاضافي الذي تجنيه سوريا او يجنيه العالم العربي من ضم لبنان ومحو استقلاله - لبنان، الرابط مصيره بمصيرهم، المتفاعل والمتضامن معهم في كل شيء؟ فإلى ان يماط اللثام عن الحكمة العليا في محو لبنان وعن الخير الاضافي من ضمه لسوريا، لا استطيع ان اتصور الدافع الحقيقي لمحاولة دمجه سوى مزيج من حسد ومنافسة وضيق صدر. لكن السياسيين الحقيقيين، الراسمين خططهم لأجيال وقرون، لا يسمحون بحال من الاحوال لهذه الدوافع الرخيصة ان تهيمن على تعييناتهم لمصير الاشياء.

بقاء لبنان حراً مستقلاً يقيس نضج العالم العربي السياسي وبعد نظره، ومحاولة محوه اعتباطياً تقيس ابتدائيته وعدم نضجه.

وبما ان مصير الواحد لا ينقسم عن مصير الآخر، فلا قبل للعالم العربي بأن يقف مكتوف اليدين اذا ما هددت اسرائيل لبنان واعتدت عليه. في تلك الحال يهب العالم العربي بحق لنجدة لبنان لأنه جزء منه لا يتجزأ.

٢٣ . لبنان واسرائيل

الدول الغربية التي يهمها بالفعل لبنان، ولو بمقادير متفاوتة، هي الولايات المتحدة وانكلترا وفرنسا.

اذا اعتدت اسرائيل على لبنان فالغرب يتحرك بقدر ما يتحرك اذا اعتدت على اي جزء آخر من العالم العربي. باستثناء فلسطين العربية وشرقي الاردن. فليس مستبعداً في نظري ان تضم اسرائيل فلسطين العربية وان تتفق بشكل من الاشكال مع الملك عبدالله باسطة فوقه جناحيها دون ان يحرك الغرب ساكناً يذكر. غير ان اسرائيل، اذا اعتدت على لبنان، فالغرب يتحرك.

ثمة خطر. هو ان يحصل اتفاق خفي بين اسرائيل وبين بعض اللبنانيين القصيري النظر فيحدثوا انقلاباً موالياً لاسرائيل. لا يعتبر هذا الانقلاب تعدياً من اسرائيل بل مجرد حركة داخلية. عندئذ لا مجال لتحرك الغرب.

لكن انقلاباً كهذا يجر حتماً الى فوضى. فتدخل

سوري عربي، فتدخل اسرائيلي، وبالتالي الى حرب جديدة. ولن يكون لبنان الكاسب فيها على الاطلاق.

لا يتلافى هذا الخطر بالضغط على لبنان او بتنفيره أو بتهديد استقلاله عربياً. يتلافى بحكمة الحكماء وصبر الصابرين وفطنة بعيدي النظر، وبالسهر واليقظة. يتلافى بترك لبنان يتمتع بحرياته الاساسية كاملة ويتطور من الداخل.

انزلاق لبنان اسرائيلياً شيء ممكن، ولو انه بعيد الاحتمال. ان يبغض لبنان ويحتقر، وان يوضع في عزلة روحية من قبل العالم العربي دون ما تفهم صادق لمشاكله، وان يضغط عليه اقتصادياً، وان يدس عليه، سواء من الداخل أم من الخارج، كل هذا ليس من شأنه ابعاد هذا الاحتمال. يكسب لبنان ويدفع عنه خطر الانزلاق اسرائيلياً اذا فتح له العالم العربي صدره وبالفعل احبه مستقلاً واشعره انه في مأمن تام من أي ضم عربي، وإذا رحب باللبناني مساهماً بإنماء العالم العربي اقتصادياً وثقافياً. شرط ابعاد لبنان عن اي انزلاق نحو اسرائيل ان تحترم فيه ارادته اللبنانية كل الاحترام.

٢٤. لبنان والغرب

اذا هبت حركة عربية تنوي الحاق لبنان بسوريا او بتكتل عربي اوسع، فما يكون موقف الدول الغربية منها؟

رأيي، كما ذكرته في برقية سابقة بتاريخ ٣١ آذار، ان الولايات المتحدة تبقى متفرجة. واذا نجحت حركة كهذه فلن تحرك اميركا ساكناً. اما اذا ادت حركة كهذه الى فوضى واضطراب ناجمين من اصرار قسم كبير من اللبنانيين على استقلال بلادهم التام، فأرجح ان اميركا تهتم بالامر. فالمسألة لدى اميركا مسألة عنف وارغام لا مسألة مبدأ. فإذا رضي السكان بالانضمام تصبح المسألة محض طوعية ولا مجال لأي تدخل خارجي. اما اذا رفض اللبنانيون ذلك وارغموا عليه واستمروا في رفض واصرار، فالمسألة عندئذ تتخذ صورة اخرى. لا اعرف مبدأ أخيراً غير هذا تود اميركا على اساسه المحافظة على لبنان.

توجد في اميركا اوساط لا ترتاح الى استقلال لبنان عن سوريا ولا ترى له مبرراً. فإذا نهضت محنة وظهر ان تضحية لبنان تحلها، فتلقي هذه الاوساط وزنها في اعتبار الوازنين. واذا اشتدت الازمة وخار عزم لبنان ولم ينصره احد من الخارج، فقد يقرر هذا الوزن الامر.

وما يصح على اميركا اعتقد انه يصح كذلك على انكلترا. فلا يمكن الاتكال على اي منهما لانقاذ لبنان وقت المحنة. اي اني لا المح ان اميركا او انكلترا، بحد ذاتهما وبصرف النظر عن علاقتهما مع فرنسا، يهمهما ان تريا في لبنان شيئاً اخيراً تجب المحافظة عليه.

اما فرنسا فاعتقد ان موقفها غير هذا. فرنسا تريد بقاء

لبنان مستقلاً وتتحرك بجد اذا ما هدد استقلاله ، وتتوسط بحماس لدى اميركا وانكلترا على اساس مبدئي . ولا استبعد وجود تفاهم ضمني (او على الاقل عمل فرنسا الحثيث في سبيل هذا التفاهم) بين الدول الغربية الكبرى الثلاث يخول فرنسا مناصرة لبنان ، ويخولها كذلك تمثيله اذا اجتمعت هذه الدول وبحثت في ما بينها تنسيق شؤون الشرق الاوسط . لا يتكل آخر الأمر الا على فرنسا .

غير اني فهمت من السيد شوفال اخيراً انه نهض منافس للبنان في الشرق الادنى جديد ، في كسب عطف فرنسا . وهذا هو اسرائيل . وتتألف هذه المنافسة من عناصر ثلاثة . فقد ادخلت اسرائيل اولا اللغة الفرنسية كلغة اجبارية في تربيتها الوطنية والفرنسيون اشد ما يكونون حساسية للغة والثقافة . ثم ان فرنسا تعنى كثيرا ، لأسباب سياسية ودينية تقليدية في آن واحد ، بالاماكن المقدسة ، ويظهر ان اسرائيل تسهل لها مهمة حماية هذه الاماكن ، وترحب بها ممثلة للغرب المسيحي في هذا الشأن . واخيراً تقوم بين الاشتراكية الفرنسية التي تسيطر الى حد بعيد على السياسة الفرنسية الحاضرة والتي بدورها يسيطر عليها اليهود الفرنسيون ، وبين الاشتراكية في اسرائيل ، صلة نسب . وقد قال لي شوفال ان الاشتراكيين الفرنسيين الذين زاروا اسرائيل رجعوا الى فرنسا متحمسين جداً لرقيها وامكانياتها ، مبشرين بضرورة عقد حلف بين الاشتراكيين ، وبأن

اسرائيل هي ممثلة الاشتراكية الحقة في الشرق الادنى وستنشرها فيه .

ومهما يكن من امر هذه المنافسة فاعتقد ان العاطفة الفرنسية من السعة بحيث لا تستنفدها محبة اسرائيل ، وان لبنان مع ذلك تبقى له زاوية خاصة في ملء العطف الفرنسي .

٢٥ . لبنان في ذاته

ليس لبنان بالذات السياسية القومية المطلقة ، ولا تبرر وجوده حجج سياسية . مبرر لبنان الاخير امام ذاته وامام الضمير العالمي هو امانته للحرية العقلية والروحية والكيانية . اذا ظل اميناً لهذه الحرية فلا يستطيع احد على الاطلاق ان يبرر محوه . ويجد دائماً من يتحمس له ويتطوع لنصرته . اما اذا تنكر لها او وهن في حملها فتضعف ثقته بنفسه وثقة غيره به وينتفي رويداً رويداً مبرر وجوده . فبقدر ما يحترم ويحقق حرية العقل والروح والتعبير لا سبيل لهدمه ، وبقدر ما لا يحترمها ولا يحققها لا سبيل لعدم هدمه .

لذلك اذا احب لبنان ان يقوي نفسه فعليه ان يقوي اسباب العقل والروح فيه . اذا عرف عنه انه يعبد الحرية الحقة والنور والمعرفة ، وكان هو بالفعل كذلك ، فاني اضمن بقاءه . اما اذا لم يكن ولم يعرف كذلك في الاوساط المسؤولة المقررة ، فسيزول .

فوق تأديته قسطه المتواضع المشترك في التعاون العربي العام – وعليه ان يظل في الطليعة من حيث هذا التعاون – يجب ان يتعمق لبنان في ما يمتاز به عن سائر البلدان العربية وفي ما لا تستطيع احداها مضارعته به الى مئة سنة، بانصبابه على ميزته الخاصة الفريدة يبقي ذاته ويخدم العالم العربي، لا بتقليده الاعمال وطرق العيش المتوافرة في غيره.

ليلمع بالتجارة وليقوها. ليحقق اقتصاديات علمية غربية. ليؤسس صناعات فذة في الشرق كله. ليحرر اجتماعياته تحريراً تاماً بحيث يصبح يضرب به المثل في الشرق والغرب.

ليخلق اطاراً من الحياة مليئاً بالمرح والمثل يتفجر معهما الشعر والفن تفجراً. لبنان مدعو لأن يكون شعره وفنه وادبه وموسيقاه ونحته وبناؤه من ارقى الطرازات، ولأن يلهم بها جميعاً العالم العربي. وما يمكن للبنان في هذه الحقول لا يمكن لسواه.

ليشجع مؤسسات الفكر والعقل. لبنان مدعو لأن ينتج علماً ونقداً وفلسفة ولاهوتاً لا مثيل لها في الشرق على الاطلاق. وانا أؤمن ان هذه الدعوة العقلية اخطر دعواته كلها.

اذا حقق لبنان ذاته الفريدة وقواها، ثبت في وجه كل عاصفة. عندئذ يؤمن بنوه به كل الايمان. ما ينقص لبنان اليوم هو ايمان بنيه به. والايمان لا يمنح الا الى الذات الفذة القيمة. اما ذات لبنان الفذة فلا تتألف من

موارد مادية او امكانيات زراعية او صخابة عسكرية او حنكة سياسية، بل من الحرية في التبادل التجاري والتحقيق الاقتصادي العلمي والتأسيس الصناعي والتفاعل الاجتماعي. تتألف ذات لبنان الفذة من امكانيات الفكر والعقل والروح الحرة الايجابية فيه. فاذا اصبحت هذه الامكانيات فعلاً حقيقياً، آمن بنوه به وأحبوه فوق أي شيد آخر. واذا برهن للعالم العربي انه متضامن معه في كل شيء وانه مع ذلك لا يستطيع تحقيق ذاته، وبالتالي تأدية خدمته الفذة له، الا ببقائه مستقلاً حراً عنه، فيقيني ان العالم العربي لا يفرط به بضمه اليه وبالتالي بخسران مساهمته، بل يتركه يكون ذاته في حرية تامة. واذا اقتنعت اوساط الغرب المقررة بأن للبنان قيمة اخيرة بحد ذاته، انبرت هي للدفاع عنه وللمحافظة عليه. ايمان بنيه به، سماح العرب له بالبقاء، حماس الغرب لكيانه: كل هذه الاسباب الاخيرة لوجوده تتوقف على مقدار تحقيقه ذاته: كياناً حراً في مبادلة وخلق الصنع المادي وفي مبادلة وخلق الصنع العقلي والروحي.

ما هو العمل الممكن الاكثر فعالية من اي عمل آخر في تقرير مصير لبنان؟ هذا العمل الممكن هو ان تخصص الحكومة الجليلة كل سنة خمس ميزانية الدولة في سبيل المشاريع والمؤسسات العقلية: لتنظيم اقتصاديات واحصاءات علمية دقيقة، لتأسيس المعاهد العالية، لتشجيع التأليف والنشر، لخلق حركة فنية

عقلية حرة صاخبة لا عهد للبنان ولا للعالم العربي لها منذ الازل، كل هذا ممكن.

فليس بالسياسات يصير لبنان ويبقى، بل بالعقل النير الحر، المتصل بالتراثات الاصيلة، المجسد فعله في مؤسسات وحركات، المنظم للمادة والحياة، المتفجر معرفة وحقيقة وجمالاً، المحب الهادئ الشامل الوديع.

بعد ما يزيد على نصف قرن من الزلازل التي هزّت وتهز العالم العربي، تنشر دار النهار وثيقة من أخطر وثائق الدبلوماسية العربية.

صاحبها: الدكتور شارل مالك، بصفته وزير لبنان المفوض في الولايات المتحدة الأميركية، ومندوب لبنان الدائم لدى الأمم المتحدة – الحديثة العهد آنذاك – وكان الدكتور مالك أحد الذين وقعوا شرعة إنشائها في سان فرنسيسكو عام ١٩٤٥ (...).

هويتها: تحليل علمي، بل فكري شامل وعميق لواقع إسرائيل، ولمطامحها، بعد سنة واحدة فقط من إنشائها. ثم تحليل للسياسة الدولية، وللسياسة الأميركية بنوع أخص، مع مقارنة بالسياسات الأوروبية، وماذا يمكن العرب أن يَنتظروا من هذه وتلك.

في هذا الإطار بالذات، تحليل ولا أصرح ولا أجرأ وأعمق، لحال العرب ومستقبلهم، ومستقبل المنطقة انطلاقا من الجذور التاريخية والمقومات الحضارية والثقافية.

والنص يصح وصفه بإعلان عن حقوق لبنان وفلسطين والعرب أجمعين... حقوقنا على العالم كما حقوقنا على أنفسنا وواجباتنا تجاه تاريخنا المقبل على التاريخ.

غسان تويني



ISBN 2-84289-393-X